

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة المسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

البادية والمدينة في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تاريخ القرون الوسطى

إشراف الدكتور:
مفتاح خلفات

إعداد الطالب:
السعيد كداد

السنة الجامعية:
1435-1434هـ/2013-2014م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشكر والعرفان

تحية طيبة ملؤها كل معاني الشكر والتقدير والإحرام للذين ساعدوني

لإخراج هذا العمل إلى النور

أحمد الله أن هداني بدعم المشرف الأستاذ والدكتور

مفتاح خلفات الذي دعمني في انجاز هذا العمل

وأوجه خالص شكري لزملائي عادل بديرة وسهيله دهمش وكل طلبة الماستر 2

كما أقدم شكري الخالص إلى أساتذة تاريخ القرون الوسطى

الإهداء

إلى ينبوع العطاء الذي زرع في نفسي الطموح والمثابرة...والذي العزيز
رحمه الله، إلى نبع الحنان الذي لا ينضب...أمي الغالية...

إلى من يحملون في عيونهم ذكريات طفولتي وشبابي...

إلى أخي وأخواتي...

إلى من ذاقت السطور من ذكرهم...

فوسعهم قلبي...

الأصدقاء الأحياء

حضي تاريخ المغرب الأوسط باهتمام كثير من المؤرخين، فأحاطوا بأغلب القضايا السياسية والإقتصادية والفكرية، بينما بقيت القضايا العمرانية قضايا ذات الصلة بال عمران و المجتمع تشكو قلة الإهتمام و مرد ذلك يعود بالأساس إلى قلة المصادر التي إهتمت بهذا مواضيع ، ولعل من أهم المواضيع التي لم تنل حقاها بين الدراسات¹ و البحث في موضوع البادية والمدينة في المغرب الأوسط الذي يبقى من المواضيع المسكوت عنها رغم ما يكتسه من أهمية .

تعد الإشكالية لب البحث ومحركه، وعلى ضوءها ينطلق الباحث في معالجة موضوعه فقد يكون هذا الموضوع قد حظي بدراسات سابقة، ولكن بالرغم من هذا فإنه يمكن لكل باحث أن يعالجه من زاوية معينة، وطريقة خاصة تلعب فيه الإشكالية دورا بارزا في آلية معالجة موضوع البحث، وعليه يمكننا طرح الإشكال التالي:

- إلى أي مدى تنسحب مواصفات المدينة في العصر الوسيط على مدن المغرب الأوسط؟ وما هي أبرز الجوانب الحياتية التي ميزت البادية في المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة؟
 - وقد تمحض عن هذا الإشكال مجموعة من التساؤلات نجملها كالآتي:
 - كيف كان تحول مدن المغرب الأوسط الساحلية من مرافئ صغيرة إلى حواضر كبيرة، والمدن الداخلية من خطوط ومناطق عبور تجاري للقوافل إلى حواضر في العصر الوسيط؟
 - كيف كان التواصل بين البادية والمدينة في المغرب الأوسط؟
 - ماهي طبيعة العلاقة التي ربطت البادية والمدينة في المغرب الأوسط؟
 - كيف تستطيع القبائل البدوية العيش والاستمرار والمحافظة على النظام في ظل غياب سلطة مركزية؟
- أسباب اختيار الموضوع:

لا تخفى على الباحث اليوم الأهمية التي تكتسيها دراسة موضوع البادية والمدينة ومكوناته الجغرافية والبشرية-اقتصادية و اجتماعيا التي تجمع بين الدراسات الأنثروبولوجية والميثولوجية .

¹ من بي هذه الدراسات: محمد حسن: البادية والمدينة لافريقية في العهد الحفصي ، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، تونس، (د ت)؛ و عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات: المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، ط1، المركز الثقافي العربي ، بيروت، 1994م.

-تسليط الضوء على مظاهر الحياة الاقتصادية و الاجتماعية لمجتمع البادية في المغرب الأوسط في تلك الفترة الوسيطة.

- أطمح أن يكون موضوع هذا البحث حلقة وصل في سلسلة البحوث المنجزة في التاريخ السياسي، والحضاري، والاقتصادي، والاجتماعي للمغرب الأوسط.

- نروم بهذا البحث إلى إنارة بعض الزوايا في موضوع البادية والمدينة في المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

خطة البحث:

للإجابة عن التساؤلات السابقة اتبعت خطة تتألف من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع و الأسباب الكامنة وراء اختياره، وطرح بعض الإشكالات الأساسية المراد الإجابة عنها، خلال هذه الدراسة، والمنهج و الخطة المتبعة لذلك، ثم عرض لأهم المصادر و المراجع التي اعتمدت عليها.

- أما الفصل الأول بعنوان المفهوم الاصطلاحي للبادية والمدينة؛ تناولت فيه شرح وضبط المفهوم الدلالي والاصطلاحي للبادية والمدينة وتطرقت إلى عنصر هام المتعلق بشروط ومواصفات الأساسية لنشأة المدينة في الفترة الوسيطة.

- أما الفصل الثاني و الذي عنونته "المدينة في المغرب الأوسط بين الحضور التاريخي والتطور السياسي والذي قسمته إلى عنصرين، الأول ذكرت فيه أهم المدن الرئيسية الساحلية بشكل موجز، ولكن جعلت من مدينة بجاية أمودجا، وذلك راجع إلى الأهمية التي بلغتها بين مدن المغرب الأوسط الساحلية في تلك الفترة، أما العنصر الثاني تناولت فيه أهم المدن الداخلة الرئيسية فكانت تيهرت من بين أهم هذه المدن لما تميزت به من خصائص وميزات، أهلتها لأن تصبح حاضرة بمواصفات مدن العصر الوسيط.

-أما الفصل الثالث بعنوان علاقة البادية والمدينة(التفاعل)، والذي خصصته للحديث عن التواصل بين إقليم البادية والمدينة في المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة، حيث تناولت فيه عنصر بأن البادية مصدر للديموغرافيا وتقوية النسيج العمراني للمدن ودعما وسندا لها ثم تطرقت إلى عنصر أن المدينة هي بمثابة نقطة

استقطاب لطلبة العلم من محيط البادية وتناولت العلاقات الاقتصادية وأهم المنتوجات الزراعية والحرف التقليدية في إقليم البادية.

وختتمت بحثي بخاتمة هي عبارة عن مجموعة من الاستنتاجات المتوصل إليها في البحث، وذيلت بحثي بملاحق التي لها علاقة بالموضوع.

المنهج:

استعنت في انجازي لهذا البحث بالمنهج التاريخي وآلية الوصف الذي يعنى بوصف الأحداث والمناطق والمدن، كما وظفنا آلية الاستنتاج كونه الأمثل والمناسب لاستخلاص أهم النتائج المتوصل إليها في موضوع البحث.

عرض المصادر و المراجع:

اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة من المصادر و المراجع تنوعت في عمومها بين تاريخية وجغرافية وفقهية رصدت لنا معلومات قيمة وهامة عن الموضوع نذكر منها:

كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب للبكري أبو عبيد ت(487هـ/1094م) هذا المؤلف جزء من كتاب المسالك والممالك وهو أهم كتب التي تناولت جغرافيا المغرب والأوسط استفدت منه من خلال ذكره لأهم حواضر هذا النطاق.

كتاب: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس وهو جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لأبي عبد الله الشريف الإدريسي ت(548هـ/1154م) والذي أفادني بشكل واسع من خلال وصفه لبلاد المغرب الوسط و ذكره لأهم حواضره وقد اتسم وصفه بالوضوح.

كاتب وصف افريقية للحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي ت(957هـ/1552م)، ويهتم هذا المصدر بوصف كل المدن الواقعة في بلاد المغرب الإسلامي، استفدت منه خاصة الفصل الثاني وذلك من خلال الوصف الواضح الذي قدمه لنا عن أهم حواضر المغرب الأوسط.

كتابي المقدمة و العبر لعبد الرحمان بن خلدون ت(808هـ/1406م) الذي فصل عديد الأحداث، وكان اعتمادنا عليه أساسيا وخاصة في دراسة البادية و المدينة لما تميز به من فكر عميق وشمولي يتجاوز المجال المحلي، فقد استطاع هذا المؤرخ بثقافته الموسوعية وجهده الفكري، أن يشكل رافدا له أهمية لإضاءة

زوايا عديدة من فصول البحث خاصة كتاب المقدمة الذي كان بالنسبة لي خير دليل في كل هذه الدراسة وهذا ما سيلحظه قارئ هذه المذكرة.

أما كتاب العبر ولا سيما الجزء السادس منه الذي استفدت منه كثيرا في الفصل الثاني من خلال النصوص الذي ذكر منها أهم مدن المغرب الأوسط الساحلية و الداخلية، كجاية و تيهرت.

كتاب أخبار الأئمة الرستميين لمؤلفه ابن الصغير المالكي الذي عاصر أواخر أيام الأئمة الرستميين منذ عهد أبي اليقظان، ولهذا اكتسى هذا الكتاب أهمية كبيرة خاصة بالنسبة لتاريخ الدولة الرستمية فقد احتوى على الكثير من المعلومات حول تاريخها السياسي و الحضاري، حيث أفادني من خلال المعلومات القيمة التي تناول فيها أخبار مدينة تيهرت.

بالإضافة إلى هذه المصادر اعتمدت أيضا على مصادر تاريخية أخرى فقهية أهمها: المعيار المغرب الوشريسي والذي يعتبر أساسي ومهم وهذا المؤلف يعتبر مفتاح لدراسة عدة جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا، حيث استفدت من في الفصل الثالث المتعلق بالجانب الاجتماعي والاقتصادي الديني لإقليم البادية في العصر الوسيط، إلا أن فتاوى المعيار عرفت اختلافا في الحكم من نازلة إلى أخرى وهذا ناتج عن اختلاف العرف من منطقة إلى أخرى .

أما المراجع التي اعتمدت عليها فهي كثيرة خاصة التي لها صلة بموضوع البحث، حيث مكنت من التعمق في بعض فصوله وتفريعها، وأفادت في إضاءة بعض الزوايا من خلال النتائج التي توصل إليها أصحاب المراجع من بينها على وجه الخصوص:

كتاب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين 9، و10 الميلادي لمؤلفه عبد الكريم جودت الذي مكنتني من الوقوف على أبرز وأهم الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع المغرب الأوسط ولذكره لأهم حواضره .

كتاب "قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين 6_9هـ/12_15م دراسة في دورها السياسي و الحضاري لمؤلفه مفتاح خلفات حيث استفدت منه في موضوع بحثي خاصة في الفصل الثاني حيث يقدم لنا معلومات قيمة عن مدينة بجاية كحاضرة من حواضر المغرب الأوسط، كما أنه أفادني في ذكر أهم جوانب المتعلقة بمجتمع البادية في الفترة الوسيطة.

كتاب المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي لصاحبه محمد حسن الذي استفدت منه في تحديد وضبط مفهوم البادية والمدينة وأهم جوانب الحياة في مجتمع إقليم البادية وحول العلاقة بين البادية والمدينة.

كتاب الدولة الرستمية لصاحبه إبراهيم بحاز وهو من المراجع النادرة المتخصصة في التاريخ الحضاري للدولة الرستمية حيث رصد مظاهر الحضارة في المدن و البوادي خاصة مدينة تيهرت.

الصعوبات:

واجهتني في هذه الدراسة جملة من الصعوبات يمكن تلخيصها كالآتي

_ قلة المادة المصدرية التي تناولت البادية و المدينة في جانبه الاجتماعي و الاقتصادي وهذا ما صعب علي دراسة نواحي كثيرة من الموضوع وحال دون الإجابة عن العديد من الإشكالات التي واجهتني.

_ قلة المادة المصدرية المتعلقة بمجال البادية مما يجعل الكفة تميل إلى مجال المدينة على حساب البادية.

_ صعوبة التحكم في هذه الدراسة بفضاء جغرافي واسع كفضاء المغرب الأوسط.

_ عدم احتواء الكتب الجغرافية والتاريخية على معلومات في الجانب الاجتماعي و الاقتصادي لمجتمع البادية الا ما جاء في بعض الكتب النوازلية.

_ ضيق الوقت المخصص لدراسة الموضوع المقدر بأقل من موسم دراسي واعتقد بأنه ليس بالوقت الكافي لمعالجة مثل هذه المواضيع التي تحتاج جهدا وصبرا وأناة في تناولها.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أكون قد ساهمت ولو بالقليل في معالجة هذا الموضوع أو على الأقل أرشدت إلى موضوع مهم يحتاج إلى التنقيح والإمام، كما اشكر الاستاذ الكريم مفتاح خلفات الذي ساهم معي بارشاداته السديدة في إنجاز هذه الرسالة ،وحسبي أنني قد بذلت جهدا معتبرا لاجراء هذا العمل على صورته التالية.

الفصل الأول

المفهوم الاصطلاحي

للبادية والمدينة

أولاً: التعريف اللغوي والاصطلاحي

للبادية

ثانياً: التعريف اللغوي والاصطلاحي

للمدينة

ثالثاً: شروط نشأة المدينة في العصر

الوسيط

يعتبر موضوع البادية والمدينة من أهم المواضيع التاريخية ، التي تطرق إليها المؤرخون والجغرافيون بصفة عامة، لأهميتها البالغة في الدراسات التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وقبل الخوض في دراسة موضوع البادية والمدينة أرى من المفيد جدا ضبط مصطلح البادية والمدينة في العصر الوسيط لغة واصطلاحا، من اجل توضيح وتحديد المفهوم العام والشامل للبادية والمدينة.

أولا: التعريف اللغوي والاصطلاحي للبادية:

لغة:

عرف ابن منظور في كتابه **لسان العرب** البادية: «الأرض التي لا حضر فيها ، والبدو والبادية والبدوة خلاف الحضر ، وينسب البادية بدوي ، وبدا القوم بداء خرجوا إلى البادية وقيل للبادية بادية لبروزها وظهورها، قيل للبرية بادية وتبادى تشبه بأهل البادية».¹

تعرض النص القرآني إلى البدو والبادية فضلا عما خص بع الأعراب من آيات وعددها عشر في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا قَدْ أَحْسَنَ رَبِّي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.²

وقوله تعالى أيضا: ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾.³ كما وردت عبارة أهل البادية أو البادية مرات عديدة في الأحاديث النبوية منها «عليه مسحة أهل البادية»، «ومن سكن البادية حفا» إشارة إلى طبيعة البادية القاسية وتأثيرها في سلوك النفس البشرية.⁴

أما الزمخشري فيعرف البادية : لقد بدوت يا فلان أي نزلت البادية وصرت بدويا ومالك والبدوة؟ وتبدى الحضري ويقال: أين الناس؟ فتقول : قد بدو أي خرجوا إلى البدو وكانت لهم غنيمات يبدون

¹ دار صادر: بيروت، لبنان، (د.ت)، ص178.

² سورة يوسف ، الآية 100.

³ سورة التوبة ، الآية 101

⁴ محمد حسن: البادية والمدينة لأفريقية في العهد الحفصي ، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، تونس، (د ت)، ج1، ص87.

إليها¹ أما فيما يخص المعاجم اللغوية فقد تطرقت إلى كلمة البادية لغة أي أن بدو الباء والداد والواو أصل واحد وهو ظهور الشيء يقال بدا الشيء يبدو إذ ظهر فهو باد وسمي خلاف الحضر بدوا من هذا لأنهم في براز من الأرض وليسوا في قرى تسترهم أبينتها والبادية خلاف الحاضرة ، قال الشاعر:

فمن تكن الحضارة أعجبتة
وتقول بدا لي في هذا الأمر
فأي رجال بادية ترانا
بدا أي تغير رأي عما كان عليه²

اصطلاحاً:

ظل مفهوم البادية³ غير دقيق حتى أنه كان يطلق في بعض الأحيان على كل المجال الموجود خارج الحواضر، وفي العموم شملت مجالين أساسيين الريف وهو مرتبط بالزراعة والخصب في المعاش حسب المفهوم الخلدوني وقد عد أهله في بعض الأحيان من بين أهل الحضر.

الفيافي والصحاري التي تشكل المجال الحيوي للقبائل البادية والضاغنة في حلها وترحالها⁴ وفي معناها الواسع هو نمط عيش مرادف للبداءة، وهو ما ينسحب على سكان بلاد المغرب الأوسط فابن خلدون ذكر ا ناهل التاريخية البدو على إنهم : « المتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمسكن وسائر الأحوال والعوائد ويقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمسكن وسائر الأحوال والعوائد ويقتصرون عما فوق ذلك من حاجتي

¹ الزنجشيري: أساس البلاغة ، تحقيق:محمد باسل عيون السود،ط1،منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت: لبنان،(د ت)، ج1،ص51.

² أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،1399هـ/1979م،ج1 ، ص212؛ مجمع اللغة العربية المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ، القاهرة، مصر، 1994م،ص41.

³ ورد ذكر مصطلح البادية في بعض المصادر التاريخية ،كمصدر لجمع الضرائب من خلال وصية المعز لدين الله الفاطمي ليلكين بن زيري الصنهاجي يوم استخلفه على افريقية والمغرب، قائلا:"ان نسيت ماوصستك فلا تنس ثلاثة اشياء،اياك ان ترفع الجباية عن اهل البادية ... وافعل مع اهل الحاضرة خيرا"؛ينظر:ابن الخطيب :تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط اعمال الاعلام ،تحقيق:احمد مختار العبادي و محمد ابراهيم الكناي ،دار الكتاب ، الدار البيضاء ،المغرب،1964م — ص64؛ابن ظافر الاسدي:اخبار الدولة المنقطعة،تحقيق:عصام هزيمة واخرون،ط1، مؤسسة حماد،دارالكندي، الاردن،1999م،ج1،ص34؛ابن خلكان:وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ،تحقيق:احسان عباس،دار صادر،بيروت ،لبنان ،(د،ت)،ص286.

⁴ محمد حسن: المرجع السابق، ص89.

أو كمالي و يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة¹ من خلال تعريف ابن خلدون للبادية يمكن القول بأنهم البدو ضواغن ومستقرون.

ولقد أصبح مصطلح البادية أكثر اقترانا بالترحال في العصر الوسيط بعد سيطرة العرب الهلالية فتعددت مرادفاتها مثل أهل الوبر مقابل سكان المدر ، وأهل العمود نسبة إلى الخيام التي تعهد أي تنصب وأهل الإبل والشاوية والقائمين على الشاء والبقر وأهل الغارة باعتبار أن طبيعة عيشهم تقتضي منهم الاستناد إلى الرماح والضواغن الرحالة الذين يحطون بالحلة أو التزلة فينصبون أوتادا الخيام ويوقدون النار في الاثافي وينتقلون من نزلة الصيف إلى نزلة الشتاء.²

فالواضح من خلال هذه التعريفات للبادية يمكن أن نقول بأن مفهوم البدو يشتمل في الآن نفسه البدو والرحل والمزارعين المستقرين كما يذكر ابن خلدون أيضا أن العمران في بلاد المغرب الإسلامي قليلة والسبب في ذلك أن البربر كان عمراهم بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها وأنهم أهل عصبيات وانساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم ، وكان أهل البدو يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ولا يدعوهم إلى ذلك إلا الترف والغنى وقليل ما هو في الناس فلذلك كان عمران المغرب الإسلامي كله أو أكثره بدويا ومما سبق يمكن أن نستنتج أن سكان المغرب الإسلامي معظمهم يسكنون البادية³

فالواضح من مفهوم ابن خلدون للبادية يمكن القول أن بلاد المغرب الإسلامي تحمل في ثنايا ميزاتها عوامل فرضتها الخصوصية الجغرافية من جبال وصحاري وغيرها أدت إلى انتشار القبائل بها وسيطرتها عليه بشكل دائم ولهذا بقي المغرب الأوسط الإسلامي في معظم مناطقه عبارة عن بوادي دون تعمير.

ثانيا: التعريف اللغوي والاصطلاحي للمدينة.

لغة: أشار البحث اللغوي إلى أن كلمة مدينة ترجع أصلا إلى كلمة دين وان لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية والعربية أي أنها ذات أصل سامي وعرفت المدينة عند الأكاديين والأشوريين بالدين أي القانون كما أن الديان يقصد بها في اللغة الآرامية مدينتنا وتعني القضاء⁴ توافق هذه التفسيرات ما ورد عند

¹ المقدمة: تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، 2002م، ص115.

² محمد حسن: المرجع السابق، ص88.

³ ابن خلدون: المصدر السابق، ص121، 115-122.

⁴ محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت ، 1988م، ص17 وما بعدها.

في القرآن الكريم الذي يأتي دليلاً على أهمية المدينة في حياة الأمة الإسلامية إذ وردت في صيغ مختلفة (المفرد - المثني - الجمع) ومعان متعددة إحدى وثلاثين مرة¹ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَرَعُونَ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لُتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾² وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾³ وأيضاً قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾⁴ وتشير بعض التعريفات اللغوية للمدينة إشارات واضحة إلى تحديد كيانها المادي والاجتماعي كقول ابن منظور: المدينة هي مدن بالمكان: قام به فعل ممت ومنه المدينة وفي قوله أيضاً المدينة الحصن في أصطمة من الأرض وكل أرض بني عليها حصن في أصطمتها فهي مدينة والأصطمة معظم الشيء وتماه.⁵

وكلمة مدينة city مشتق من (civitas) اللاتينية ويرادفها باليونانية (polis) وفي اللاتينية والإغريقية كانتل هاتان الكلمتان تجسمان فكرة دولة المدينة (city state) التي هي الدولة كوحدة صغيرة لها بؤرة مركزية لحياتها ونشاطها ولكن كلمة (civitas) مدينة أخذت بالتدرج معنى أوسع عموماً فمذ عام 1150م وهو التاريخ الذي نضجت فيه فكرة العصور الوسطى عن المدينة وأصبحت الكلمة تعني حلة صناعية تجارية لها قانونها الخاص وحائطها الحصن.⁶

والمدينة أيضاً تعني مدن المدائن بناها تمدن عاش عيشة أهل المدن وأخذ بأسباب الحضارة تمدن تمدن، والمدينة هي الحضارة واتساع العمران والمدينة المصر الجامع،⁷ وطبقاً لهذا التعريف فإن الأصول القديمة للمعاجم العربية لا تطابق تصور المدينة الحديث، مثلما يؤكد هشام جعيط الذي يرى أن المفهوم العربي للمدينة ربما تعني حصناً أو بصورة أدق الحصن، وكذلك فهي مدينة بما حصن أو بناهات محصنة،⁸ هذا المفهوم هو الآخر قد يكون جانب الصواب، ذلك أنه استند في تعريفه للمدينة بناء على الكوفة وهذا لا

¹ محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، (د.ت)، ص543-544.

² سورة الأعراف: الآية 123.

³ سورة يوسف: الآية 30

⁴ سورة ياسين: الآية 20

⁵ ابن منظور: المصدر السابق، المجلد 13، ص402.

⁶ جمال حمدان: جغرافية المدن، ط2، علا الكتب، القاهرة، (د.ت)، ص82-83.

⁷ مجمع اللغة العربية المعجم الوجيز، ص576.

⁸ هشام جعيط: المدينة العربية الإسلامية، الكوفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005م، ص201.

ينطبق على باقي المدن الأخرى وللوقوف على المعنى الشامل للمدينة يجب الوقوف عند المفاهيم التي استخدمها العرب والتي كانت تشير إلى المدينة لكنها جاءت بصيغ تختلف من مصر - وطن - مدينة - بلد - حصن - حاضرة - مدرة - وهي كلها مفاهيم تشير إلى نفس التحديد¹.

اصطلاحاً:

المدينة هي تعني الحضارة واتساع العمران² والتمدن أرقى انجاز توصل إليه الإنسان في استقراره على الأرض وهي وليدة الحضارة، وهي مركز الإشعاع الفكري وأسلوب متقدم من أساليب الحياة، والمدينة الإسلامية لا تخرج عن هذا الإطار فهي جميع المظاهر المادية للحضارة الإسلامية التي تعبر عن طبيعة الفكر الإسلامي³، وهذا ما أكده القزويني في تعريفه للمدينة قوله: « عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمع البشر في الصحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح ولو تستروا في الخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو... فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار»⁴.

وهذه التعريفات للمدينة المتنوعة كلها تؤدي إلى معنى التجمع والجماعة أي معناه الاستقرار وتبادل الخبرة والمنفعة وكثير ما حددت المدينة بصيغة قضائية، فكان يعلن مدينة في مرسوم يمنحها حقوقاً ويفرض عليها واجبات معينة تميزها عن الريف، كإقامة الأسواق والحصون والسور فكانت المدينة الوسيطة⁵، ولا تكتمل صورة المدن الإسلامية في العصر الوسيط إلا إذا عرفنا مقولات الجغرافيين ومختلف مفاهيمهم فيما يتعلق بموضوع المدينة والمدن إذ يعتبر الكثيرون أن ما كتبه العرب من الكتب الجغرافية هي كتب في جغرافيا المدن بقدر ما هي جغرافيا إقليمية وأن ذلك يعود لاهتمامهم بالجوانب الحضارية ومراكز السلطة السياسية ومحاور الجباية ونقاط الدفاع والحرب ومنابر الدين والتجمع السكاني ومحطات القوافل وكل ذلك يجتمع في

¹ عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، 2001م، ص59.

² مجمع اللغة العربية المعجم الوجيز، ص576.

³ ميادة عبد الملك ومحمد صبري: مجلة كلية التربية واسط، تخطيط وعمارة المدينة الإسلامية مدينة دمشق القديمة نموذج حضري لقمة

التعايش والتعامل في المنظور الاسلامي، معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، ع11/ ص3.

⁴ آثار البلاد واختبار العباد: دار صادر، بيروت د.ت ص7

⁵ جمال حمدان المرجع السابق، ص8

المدن،¹ في تلك الفترة ومن خلال هذا نستفيد من الجغرافيين كثيرا في تحديد وضبط المصطلحات الخاصة بالمدن والتي تدل على شمولية المفهوم كما قلنا عن هؤلاء كما تدلنا على مستوى حجمها.

أما المقدسي قدم لنا ثلاثة مفاهيم تتعلق بمسألة العمران والمدن تتعلق بتعريفه للأمصار والمدن والأقاليم والنواحي في البداية نجده يقسم العمران إلى عدة اصناف تراتبية حسب درجتها فيقول: اعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالرجالة ثم يضيف ويرد على اختلاف رأي الفقهاء في تعريفهم للمدن ويقول: فقالت الفقهاء: المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه².

ويفهم من ذلك انه لا بد أن يكون في المصر مسجد يجمع الناس فيه للصلاة وإقامة الحدود وان تكون هناك سلطة حاكمة في المدينة والمتمثلة في السلطان أو الحاكم الذي يقوم على شؤونه ويحفظ المصالح بين العباد ويجعل لها سورا حصينا لحماية المدينة من الأخطار الخارجية.

أما مفهومه فيقول: وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت الدواوين وقلدت منه الاعتمال وأضيف إليه مدن الأقاليم³ ثم يضيف في قوله أم هذه الأمصار قد تكون لها نواحي وأقاليم فيها مدن تابعة لها: ولا بد لكل إقليم من كور ثم لكل كورة من قصبية ثم لكل قصبية من مدن⁴ ومن خلال هذه التعريفات تفهم أن المقدسي يحصر المدينة في المكان الذي يجمع بين السلطان والمنبر والقامة الحدود وهي إشارة إلى ضرورة توفر سلطة الدولة بدواوينها وتنظيماتها ليتسنى لها الإشراف على شؤون الناس بالمدن، فالمدينة إذن اعتبرت في مفهومه احد مظاهر السلطة ووجودها، إذن مفهوم المقدسي لا يناقض ما جاء به الفقهاء حول تعريفهم للمدن والتي ارتبطت أساسا بإقامة أركان الدين وخاصة شروط إقامة صلاة الجمعة والمتمثل في المسجد الجامع وهذا ما أشار إليه عبد الجبار ناجي في قوله: « فكل أسبوع يتجمع الناس المسلمين من أجل هذا الواجب الضروري والذي لا يؤدي خارج المقر الدائم» وهنا يكون تدخل الإسلام بتعاليمه التربوية فيما يخص صلاة الجمعة السلطة المركزية ممثلة في شخص قائد الجند أو الحاكم يؤسس في

¹ مصطفى شاكرا: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط2، مكتبة الأسد، دمشق 1997م، 47/1.

² أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: تحقيق: محمد أمين الضاوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003م، ص44.

³ نفسه، ص46

⁴ نفسه: ص47

كل مدينة مهمة صلاة الجمعة ويأخذ مكان مركزي في عمران المدينة،¹ وهذا دليل على أن تركيب وتنظيم المدن الإسلامية في العصور الوسطى يتضح بتمركز المدينة حول المسجد الجامع وقصر الحاكم وبيت مال المسلمين فيما تتفرغ الشوارع الرئيسية من المركز نحو الأجزاء الأخرى وبوابات،² البلد كل هذا كان انعكاسا للملائمة الإدارية والوظيفية ومن هنا كانت تعريفات الفقهاء المسلمين للمدن مرتبطة أساسا بالمسجد وأدواره المختلفة فعند الماوردي يعتبر أن صلاة الجمعة في قوله: «لا يجوز إقامتها إلا في وطن مجتمع المنازل يسكنه من تعتقد بهم الجمعة لا يضعنون عنه شتاء ولا صيفا إلا ظعن الحاجة سواء كان مصرا أو قرية».³

ثالثا: شروط نشأة المدينة في العصر الوسيط.

لقد مثلت المدن محور أساسيا وقرارا تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوراقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها لذا أوجب أن يراعى من أجل ذلك توفر شروط ملائمة لنشأة المدن في العصر الوسيط وعليه فما هي أهم هذه الشروط التي تساعد في نشأة المدينة في تلك الفترة؟

لقد تطرق ابن خلدون ت (808هـ-1406م) إلى موضوع شروط نشأة المدن في العصر الوسيط في كتابه المقدمة ومما يؤكد هذا قوله: الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا بسياج من الأسوار... إما على هضبة متوعرة من الجبال أو نهرها... طيب الهواء لسلامة من الأمراض. من خلال قول ابن خلدون نستخلص انه لا بد من وجود سور يحيط بالمدينة من أجل توفير الأمان والأمن للناس فيها وحمايتها من الأعداء والأخطار الخارجية ويراعى لها موقع طبيعي استراتيجي حصين لكي تقام عليه المدينة ووجود عنصر الماء وتوفره لأنه عنصر أساسي في الحياة من أجل البقاء وأن تكون في منطقة لها هوائها طيب من أجل السلامة من الأمراض.⁴

¹ عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص189.

² محمد شوقي إبراهيم مكّي: المدخل إلى تخطيط المدن، دار المريخ للنشر والتوزيع، الرياض، 1986م، ص112.

³ الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب: الأحكام السلطانية الدينية، تحقيق: احمد مبارك البغدادي، ط1، مطابع الوفاء، المنصورة، مصر، 1409هـ/1989م، ص122.

⁴ ابن خلدون: المصدر السابق، ص321.

والحماية من المضار للمدينة يراعى لها أن يدار علي منازلها جميعا سياج الأسوار فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها والمدينة التي لم يراعى فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب¹ ومن جهته يرى الماوردي أن إنشاء المدن لا بد أن تتوفر فيه ستة شروط وهذا ما ذكره في قوله: «أولا سعة المياه والثاني إمكان الميرة المستمدة والثالث اعتدال المكان الموافق لصحة الهوى والتربة والرابع قربه مم تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب والخامس تحصين منازلها من الأعداء والزعار والسادس أن يحيط به سواد يعين أهله بمواده².

فإذا توفرت هذه الشروط ربما ساعد للتمهيد في إنشاء المدن فلا بد أن يكون البلد على نهر يازائه عيون عذبة ترة فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ومما يراعى أيضا المزارع فان المزروع هي الأقوات وإذا كانت قريبة من البلد كان ذلك أسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله والشجر للحطب والبناء من ضرورياتهم³ وهذا أيضا ما أكده أحمد بن القاضي في كتابه الموسوم جذوة الاقتباس في قوله: «وقالت الحكماء أيضا أحسن المدن هي التي تجمع خمسة أشياء نهر جار ومحراث طيب وحطب قريب وسور حصين وسلطان قاهر إذا به صلاح أهلها وتأمين سبلها»⁴ ومن هنا يمكن أن نعتبر أن أهمية الموقع محليا ودوليا تتحكم في ظهور المدينة وعظمتها وديمومتها واختيار الموقع يختلف من مدينة إلى أخرى فقد تقع في سهل فيوفر لها المزارع والمسارح أو على مرتفع وبرشك فيتيح لها مراقبة الأعداء وقد تقع عند أقدام جبل فسيح لسكانها بمطاردة العدو إذ غلبوه والى الالتجاء إلى الجبل إذا هزمهم⁵ ويلعب الموقع الجغرافي دورا في الثراء كان تكون معبرا تجاريا مما يعود بالخير على المدينة التي هي تحضى بهذه الميزة للموقع.

¹ عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات: المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص15.

² الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق: محي الدين هلال سرحان وحسن الساعاتي، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981م، ص162-163.

³ عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات: المرجع السابق، ص16.

⁴ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ص42.

⁵ عبد الكريم جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص346.

أما القزويني في كتابه أثار البلاد وأخبار العباد يذكر في قوله شروط نشأة المدينة في العصر الوسيط :
«أن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك (الحكماء يختارون أفضل الناحية في
البلاد وأفضل مكان في البلاد وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال لأنها تفيد صحة
أبدان أهلها وحسن أمزجتها واتخذوا للمدن سورا حصينا مانعا»¹ ولقد فرق الدارسون عدد من المقاييس
المقترنة بنشأة المدينة وأهميتها.

المدن التلقائية التي تساعد المعطيات الجغرافية الملائمة مثل الثورة الفلاحية والموقع على بروزها
وتطورها لكنها تظل عرضة للتطور العشوائي.

المدن المستحدثة يتولى إنشائها أمير أو سلطان بطريقة إرادية فيختار موقعها ويشرف على تخطيطها،²
وكانت حاجة المدن إلى بناء الأسوار ضرورية يهتمون ورائها من هجمات وأخطار الأعداء ولهذا كان لابد
أن تحاط كل مدينة تبرز للوجود بسور يجعلها حصينة ومنيعة في وجه الأخطار الخارجية وهذا ما أكده
القزويني في قوله: «الناس لو اجتمعوا في الصحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح ولو تستروا بالخيام
والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو ولو اقتصر على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا
سور لها لم يأمنوا صولة ذي باس فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل فحدثت المدن والأمصار
والقرى والديار»³ وغير أن الملاحظ أن هناك عوامل تتدخل في تحديد نوع السور لما كان يمثله من أهمية
كبيرة بالنسبة لنشأة المدن ، منها أهمية المدينة وحالة أهلها المادية فعلية البناء تتطلب نفقات باهظة⁴ أما في
البلاد الإسلامية ذكر القزويني في قوله: فالمدن تتوفر على مرافق أهمها المساجد والجوامع والأسواق
والخانات والحمامات ومركز الخيل ومعاضن الإبل ومرابض الغنم، أما بقية مساكنها تركوها لدور
السكان فأكثر ما بناه الملوك العظماء على هذه الهيئة وهذا ما يجعل المدينة تتميز عن القرية التي لا تتوفر فيها
كل هذه العناصر⁵ وهذا ينطبق أيضا على المدن في المغرب الأوسط التي شهدت منشآت عمرانية كتلك التي

¹ القزويني: المصدر السابق، ص8.

² محمد حسن: المرجع السابق، ص56.

³ القزويني: المصدر السابق، ص7.

⁴ عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص382.

⁵ القزويني: المصدر السابق، ص8.

التي تشهدها كل مدينة في ذلك العصر من حصون وقلاع ومن قصور ومساكن خاصة ومن أسوار تحيط بها¹.

ويبدو من خلال استعراضنا لشروط نشأة المدينة في العصر الوسيط نستنتج انه لا بد لنجاح هذه العوامل والشروط من توفر عامل الأمن والهدوء في المنطقة إذ لا يمكن أن يكون هناك ممارسة أعمال اقتصادية فرخاء في ظل حروب الخوف ولا بد من مراعاة هذه النواحي عند بحث موضوع تأسيس المدن في تلك الفترة إضافة إلى معطيات أخرى تختلف من مدينة إلى أخرى.

¹ عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 489.

الفصل الثاني

المدينة في المغرب الأوسط بين
المضور التاريخي والتطور السياسي

أولاً: مدن الساحل الرئيسية

ثانياً: مدن الداخل الرئيسية

أولاً: مدن الساحل الرئيسية :

مثلت بلاد المغرب الأوسط بما كانت تتمتع به من موقع وسط، بين أهم المناطق والمسالك التجارية العالمية إذ كانت تتحكم في أهم هذه المسالك سواء البرية والواصلة بين سواحل المغرب وبلاد الأندلس وأوروبا أو مع المشرق الإسلامي ومن هنا اكتسبت المدن الساحلية أهمية كبيرة في توفير أهم الأسواق والمراسي لاستمرارية هذه التجارة. وما تجدر الإشارة إليه هو أن الكثير من المدن الساحلية ببلاد المغرب الأوسط كانت عبارة عن مرافئ صغيرة منشؤها للتجارة، ثم تطورت بفعل التوطن الديموغرافي ونشاط الحركة التجارية في المدن خلال القرون التالية.

ويعتبر ابن حوقل أول وأهم مصدر جغرافي للواجهة البحرية لبلاد المغرب الأوسط إذ يعتبر شاهداً عياناً على واقع هذه المراسي فقد اهتم بذكر أهم هذه المراسي وتطرق إلى خصائصها، من حيث رسمها وتحديداتها وأيضاً من خلال وصفها وذكر ما تتميز به هذه المنطقة التي خصصناها بالدراسة، حيث يصف هذه المراسي " وهذه جملة أحوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المحروقة على نحو بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط مما انتعي تاليه وأدركته بالعيان أو أخذته عنمن نشأ فيه.¹

أما ابن خلدون (ت808هـ-1406م) قد تطرق لقواعد وشروط تخطيط المدن في المناطق الساحلية، وتم وفق موصفات منها أن تكون المدن الساحلية مبنية في وسط قبائل موفورة العدد، قوية العصبية، وهذا لتكون عوناً للمدينة في حالة تعرضها لغارات وهجمات من الخارج، وهذا ما نجده في قوله: «ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر، ان تكون في جبل او تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريحاً للمدينة من طرفها طارق من العدو».²

ولهذا كان لزاماً على سكان مدن السواحل لبلاد المغرب الأوسط الحذر من الهجمات المحتملة والقادمة من الضفة الشمالية للبحر المتوسط، وتكون عملية بناء المدن الساحلية متوافقة مع تلبية الحاجات الأمنية التي كانت سبباً لنمو هذه المدن وتوسعها، ومن أهم هذه المدن الساحلية في المغرب الأوسط في العصر الوسيط ((مدينة بونة)) التي وصفها (صاحب الاستبصار) في قوله: «انها مدينة قديمة من بناء الأول

¹ صورة الأرض: ط02، دار صادر، بيروت، 1938م، ص83.

² المقدمة: ص384، 386.

فيها آثار كبيرة، وهي على ربوة مشرفة على فحوصها وقراها»¹ ونالت هذه المدينة اهتمام الجغرافيين العرب، ولكن ابن حوقل اهتم بذكر حجمها ورقعتها ومواردها الاقتصادية وأنها على نحو البحر وهذا ما نجده في قوله: "مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها في رقعتها كالأربس وهي على نحو البحر".²

وهذا ما أكد عليه البكري واصفا مدينة بونة قوله: «هي مدينة أفشنين العالم بدين النصرانية، وهي على ساحل في نشز من الأرض منيع»³، و من جهته وصفها حسن الوزان بأنها إستوفت شروط المدينة في العصر الوسيط بذكره بونة أو عنابه، مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، وكانت تسمى قديما اربونة،⁴ ومدينة بونة كانت في أوج نشاطها الاقتصادي والتجاري في عهد الزيري، وكان اغلب التجار أندلسيون: «واكثر تجارها اندلسيون»⁵ وهذا كله ساعدها على النمو والتطور وان تتحول من مدينة صغيرة الى حاضرة ساحلية كبيرة لها أهمية كبيرة في المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

أما مدينة "سكيدة" التي ورد إسمها عند الجغرافيين بصورة مختلفة بعض الشيء، ولكنه إحتلاف بسيط بينما ذكرها "اليقوبي" ت(284هـ-897م) بإسم "اسكيدة"، وصفها بأنها عبارة عن مرفأ على ساحل البحر يقال له "أسكيدة" من مرافئ مدينة ميله الجليلية،⁶ وردت عند "البكري" ت(487هـ-1094م) " فترد باسم "تاسقده"⁷ ويذكرها "ياقوت الحموي" ت(670هـ-1271م) " باسم "سكدة"،⁸ أما "حسن حسن الوزان" ت(957هـ-1552م) « وصفها بأنها مدينة أزية بناها الرومان على ساحل البحر، وقد خربها القوط والوندال في الزمن الغابر وأمر ببنائها أمير قسنطينة وترميمها»⁹، وذلك نظرا لأهميتها الإستراتيجية

¹ مؤلف مجهول: الإستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة وبلاد المغرب، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، الأعظمية، بغداد، (د.ت)، ص127.

² ابن حوقل: المصدر السابق، ص75.

³ المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ص55.

⁴ وصف إفريقيا: ط2، ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983م، ص61، 62.

⁵ البكري: المصدر السابق، ص55.

⁶ كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1988م، ص107.

⁷ البكري، المصدر السابق، ص83.

⁸ معجم البلدان: دار صادر، بيروت، 1977م، مج3، ص230.

⁹ حسن الوزان: المصدر السابق، ص54-55.

وموقعها على ساحل البحر الذي سمح لها بان تتحول من مرفأ صغير الى حاضرة كبيرة بمواصفات المدن في المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

- اما مدينة "جيجل" فهى مدينة قديمة التأسيس وهذا ما ذكره صاحب الاستبصار في وصفه للمدينة فيذكر في قوله: «أما مدينة قديمة على البحر، وكان لها سور قديم يضرب البحر فيه وعلى هذه المدينة جبل كتامة»¹.

- ولكن ابن حوقل ت (367هـ-977م) اقتصر وصفه لها على أنها مرسى في قوله: «فمنها جيجل مرسى»² ووافق في هذا الوصف "البكري" في قوله «ثم مرسى جيجل فيه آثار للأول»³، يعني هذا أن جيجل في أولها لم تكن مدينة بمواصفات مدن العصر الوسيط، إنما هي مرسى صغير، ثم يأتي الإدريسي ت (548-1154م) ليشيد في وصف هذه المدينة في قوله: «على أنها مدينة صغيرة على ضفة البحر، والبحر محيط بها ولها ربض»⁴، ومن خلال وصفه لمدينة جيجل يمكن ان نقول أنها نمت وتطورت لتصبح مدينة لها دور واهمية بين مدن الساحل للمغرب الأوسط. اما مدينة "جزائر بني مزغناي"⁵ فهي من أهم المدن الساحلية في المغرب الأوسط، حيث يصفها "البكري" على أنها «مدينة جلييلة قديمة البنيان فيها آثار للأول... وتدل على أنها كانت دار مملكة»⁶ أيضا ذكرها "الاصطخري" ووصفها بأنها مدينة عامرة يحفها طوائف من البربر، وهي من الخصب والسعة على غاية ما تكون المدن⁷ وافقه في هذا الوصف "صاحب الاستبصار" "كان حيا خلال القرن 6هـ" الذي ذكر بأنها مدينة ازلية على ضفة البحر والبحر يضرب في سورها⁸، وهذا ما اشار اليه الادريسي الذي ذكر بان «مدينة الجزائر بني مزغناي تقع على

¹ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص128.

² ابن حوقل: المصدر السابق، ص76.

³ البكري: المصدر السابق، ص82.

⁴ نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، ليدن، 1863م، ص97.

⁵ بني مزغناي: تعتبر من بطون قبيلة صنهاجة، والتي لها أعقاب منهم متنان وأنوغة وبنو مزغنة وبنو جعد وتلكاتة وبطوية... وهذه القبائل تنتشر مواطنهم بين المسيلة وحمزة إلى الجزائر ولمدينة مليانة. ينظر: عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: تاريخ بن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة و سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000م، ج6، ص202، 203.

⁶ البكري، المصدر السابق، ص66.

⁷ المسالك الممالك، تحقيق: محمد جابرو عبد العال الحسيني، دار القلم، القاهرة، 1961م، ص38.

⁸ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص132.

ضفة البحر وشرب أهلها من عيون البحر عذبة ومن أبارها وهي عامرة أهلة»¹. ولكن "حسن الوزان" وهو من المتأخرين يصفها «أثما كبيرة وأسوارها رائعة ومتينة جدا فيها دور جميلة ... والفنادق والحمامات»². وهذا دليلا على أنها أصبحت مدينة ساحلية كبيرة تتوفر على مواصفات وشروط المدن في العصر الوسيط، أما "مدينة تلمسان" فهي مدينة ساحلية في المغرب الأوسط ورد ذكرها عند الرحالات الجغرافية، "فالبكري" يصفها في قوله: «وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجر الجوز... وفيها آثار قديمة وبقية من النصرى الى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة»³. وهذا ما ذهب اليه الإدريسي في قوله: «أن تلمسان مدينة أزلية ولها سور حصين متقن...»⁴ وفي حين ذكرت المصادر المتقدمة أن تلمسان مدينة أهلة بالسكان وبها حصن وأثما كبيرة ومزدهرة لدرجة أنها أصبحت دار مملكة، وقد تكرر ذكرها في كتاب الاستبصار وحسن الوزان حيث يقول صاحب الاستبصار أنها مدينة «عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبى أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة في سفح جبل»⁵، أما حسن الوزان فيصفها بأنها مدينة، كانت في فترة حكم بني عبد الواد فيقول بأنها كانت مدينة صغيرة ثم توسعت وبلغت درجة عالية من الازدهار⁶، ومن خلال ما سبق يمكن أن نقول أن "مدينة تلمسان" تحولت من مدينة صغيرة إلى مدينة كبيرة بعد فترة من الزمن، وأصبحت حاضرة من حواضر بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط. أما مدينة "وهران" فإن المصادر الجغرافية والتاريخية العربية تتفق على أن تأسيس المدينة كان في عام (290هـ-902م) وتذكر أن مؤسسها هو (محمد بن أبي عون بن عبدون) وجماعة من الاندلسيين البحرين الذين ينتجعون مرسى وهران⁷. فقد حدث اتفاق بين القبائل التي تقطن المنطقة المكونة خاصة من (نفزة) وبني مسقن⁸. مع البحرينيين الاندلسيين، اما ابن حوقل فقد ذكر «ان وهران مراسي لا مدن لها مشهورة كمرسى عطا،

¹ الإدريسي: المصدر السابق، ص89.

² حسن الوزان: المصدر السابق، ص37، 38.

³ البكري: المصدر السابق، ص76.

⁴ الإدريسي: المصدر السابق، ص80.

⁵ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص176.

⁶ حسن الوزان: المصدر السابق، ص17.

⁷ البكري: المصدر السابق، ص70.

⁸ بني مسقن: ورد إسم الفرع القبلي لبني مسقن في بعض المصادر بإسم "بني مسكين" وإذ أضفنا حرف الراء بعد السين فإننا نتحصل على كلمة مسرغن. مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص133.

ووصف لنا طبيعة بنائها على ان لها سور، وهي لطيفة جدى وسورها من تراب»¹، وأشار ايضا الادريسي الى ان المراسي الكبيرة بوهران حيث يصفها « وهو على بعد ميلين من مدينة وهران وبه ترسوا المراكب الكبار والسفن السفرية.»²

وتردد الوصف نفسه في كتاب الاستبصار عن حقيقة التأسيس مع ما ذكره البكري مع اضافة في قوله: « هي مدينة على ضفة البحر بناها جماعة من الاندلسيين البحرين المرسى بالاتفاق مع قبائل البربر المجاورين لها»³. اما حسن الوزان خالف المتقدمين في جذور التأسيس المدينة حيث يصف وهران انها « مدينة مدينة كبيرة بناها الافارقة الاقدمون على شاطئ البحر »⁴. ثم تطورت شيئا فشيئا الى ان اصبحت حاضرة كبيرة لها اهمية.

مدينة بجاية:

- ورد ذكرها مدينة بجاية في كتاب ابن خلدون ((العبر)) التي قال عنها بانها تنسب الى قبيلة باغاية، إلا أن الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا بل هي بين الجيم والكاف، وهي من فرع من صنهاجة⁵، وينسب تأسيسها المدينة حسب نصوص الجغرافيين إلى الفينيقيين الذين أطلقوا عليها اسم صلدة SALDA، ثم صلداي SALDAE عندما دخلت في حكم الرومان سنة 104 ق.م، وتعرضت للتخريب من طرف الوندال سنة 430م وعرفت عندهم باسم "غور" أي الموقع الصخري أو الجبل الصخري، ثم استولى عليها البيزنطيون سنة 533م عندما احتلوا شمال إفريقيا⁶.

¹ ابن حوقل: المصدر السابق، ص77.

² الإدريسي: المصدر السابق، ص84.

³ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص133، 134.

⁴ حسن الوزان: المصدر السابق، ص30، 31.

⁵ العبر: ج6، ص231.

⁶ مفتاح خلفات: قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م)، دراسة في دورها السياسي والحضاري، دار الأمل،

تيزي وزو، الجزائر، 2011م، ص130-131.

- أما حسن الوزان قال عنها مدينة بجاية بأنها بنيت من طرف الرومان، و يؤكد على ذلك في قوله: « بجاية مدينة عتيقة بناها الرومان في منحدر على جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط تحيط بها أسوار عالية متينة وتناهر كور بنيتها ثمانية آلاف دورها كلها جميلة»¹.

- ومن خلال هذا الوصف نلاحظ انه يوجد توافق بين الأسوار العالية والجدران المتينة المزخرفة والحصون، أنها تنطبق مع العمران الروماني ويبدو من خلال النصوص التي تعرضت لها، أنها كانت عبارة عن مرفأ صغير تقصده السفن الأندلسية وهذا ما أكد عليه أيضا" ابن حوقل" والذي اكتفى بوصفها وصفها موجزا، حيث ذكرها بأنها عبارة عن مرسى وهذا في قوله: « ... وبينهما وبين جزائر بني مزغناي مراسي، فمنها جيحل مرسى إلى بجاية مرسى»². وهذا الوصف لابن حوقل الذي اعتبرها بأنها مرسى هذا راجع الى ندرة التوطن الديموغرافي بها، وهذا ما ذهب إليه الإدريسي أيضا في وصفه لمدينة بجاية « كانت ميناء فقط ثم بنيت المدينة»³.

ونفهم من قوله الإدريسي أنه لم يكن لها شأن كبير لأنها كانت عبارة ميناء، لم يرد ذكرها في المصادر الجغرافية عند اليعقوبي والمقدسي، لم تصبح مدينة تتوفر فيها كل المواصفات وشروط المدن في العصر الوسيط، ولكن في وقت البكري الذي أشار إلى كثرة سكانها، وخصائص مرساها حيث وصفها بأنها مدينة أهلة وعامرة بالسكان، وخاصة أهل الأندلس، وحسبنا في ذلك قوله: « مدينة بجاية أزلية أهلة عامرة بأهل الأندلس يجري فيها نهر كبير تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون... ومرسى بجاية هو ساحل القلعة بني الطويل، وعلى هذا المرسى تلك الجبال قبائل كتامة...»⁴

وفي هذه المرحلة أصبحت بجاية تعرف نشاط تجاري، والذي تمثل في السفن التي كانت ترسو في مرساها محملة بالسلع والبضائع الأندلسية، وأيضا ذكر " ياقوت الحموي" في كتابه الموسوم "معجم البلدان" مدينة بجاية وقال عنها أنها مدينة تقع على الساحل البحر بين افريقية والمغرب الأقصى، والذي تمثل

¹ وصف إفريقيا:ص50.

² ابن حوقل:المصدر السابق،ص76؛ينظر أيضا:مختار حساني :الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى،عين مليلة، الجزائر، 2011م،ج2، ص4.

³ الإدريسي:المصدر السابق،ص91.

⁴ البكري:المصدر السابق،ص82.

في قوله: « بجاية مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب وكان بينهما وبين جزيرة بني مزغنة أربعة أيام، وكانت قديما ميناء فقط ثم بنيت المدينة»¹.

إن وصف المدينة بالأمنة يعود إلى أنها ذات موقعا « ما بين جبال شاهقة شامخة، قد حاطت بها، والبحر منها في ثلاث جهات في الشرق والغرب والجنوب... وليس لها طريق سهلة الا من الغرب»².

ويؤكد على هذه الأوصاف " الإدريسي " الذي يقول عنها أنها « هي في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال، كانت قاعدة ملك بني حماد»³. كما ذكر أن المدينة محاطة بشبكة من القلاع والحصون على طول الطرق المؤدية إلى بجاية فالمدينة كانت منذ القديم ميناء صغيرا، وأصبحت من أهم المحطات التجارية بمنطقة المغرب الأوسط⁴. وذلك يعود إلى الموقع الهام والاستراتيجي الذي تختص به وجعلها تستطيع أن تلعب ادوار مهمة، ويؤهلها أن تؤديها بامتياز، ومثل بقية مدن المغرب الأوسط في العصر الوسيط سي لعب الجبل دورا مهما في حماية المدينة، غير أن بجاية لم تنفرد بخاصية جبليةتها فقط، بل أن البحر سيفتح لها مجالا أكثر انفتاحا من الداخل، كما أنها تتوسط مدن وأمصار المغرب الإسلامي، مما جعل الرحالة يصفونها بأنها قطب المغرب الإسلامي في العصر الوسيط.

- بجاية في عهد الحماديين:

- لقد كان بناء بجاية مرتبطا بمدينة القلعة، فان هذا الارتباط يجعلنا نتساءل أن الهدف المرجو من اختطاط مدينة بجاية هو من اجل أن تكون دار ملك لبني حماد، أو كان من اجل أهداف سياسية؟

- - يورد صاحب كتاب الاستبصار: « أن القبائل العربية الهلالية بعدما عاثت في افريقية فسادا، وهدمت القيروان وغيرها من المدن، وبدأت تضيق على مدينة القلعة، مما دفع الناصر للبحث عن موضع يبني فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب الهلالية، فدل على موضع بجاية، وكان مرسى ويقال انه كانت فيه أثار قديمة، وإنها كانت مدينة فيما سلف...»⁵. وأيضا تناول ياقوت الحموي رواية التأسيس لمدينة بجاية وهذا ما نجده في قوله « كان السبب في اختطاطها، ان تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية أنفذ إلى ابن عمه

¹ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص339.

² مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص129.

³ الإدريسي: المصدر السابق، ص91، 90.

⁴ الإدريسي: المصدر السابق، ص92.

⁵ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص129؛ ينظر مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص134.

الناصر بن علناس " محمد بن البعيع رسولا لاصلاح حال كانت بينهما فاسدة، فمر ابن البعيع بموضع بجاية وفيه أبيات من البربر قليلة، فلما قدم على الناصر... أشار عليه ببناء بجاية»¹، ومدينة بجاية حسب وصف الإدريسي: « قد بنيت وعمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلكين»².

ولقد أرجع السبب الى ان بناء بجاية يعود إلى النتائج التي أفرزتها موقعة سببية التي هزم فيها الناصر بن علناس سنة 457هـ/ 1064م على يد الزناتيين وتواطؤ القبائل وخيانتها له، كانت هي السبب في حمل الناصر على التفكير في بناء المدينة³.

وأشار " ابن خلدون" إلى أن الناصر بن علناس هو الذي بنى مدينة بجاية حيث يقول: «وفي سنة ستين وأربعمائة، افتتح جبل بجاية... ولما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسمها الناصرية»⁴. وانتقل إليها الناصر بن علناس وسمها باسمه الناصرية، واسقط عن سكانها الجباية والخراج، وانشأ بها دارين لصناعة المراكب والسفن وأقام بها العمارات⁵ وبني بها قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب القصور الدنيا، وفي أيام الناصر واستفحال ملكهم وشغفهم على الملك بني باديس إخوانهم بالمهدية، فاعتزال آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا، وعظم شان أيامهم، فبنى المباني العجيبة المؤنقة وشيد المدائن العظيمة⁶،

وهذا ما أكد عليه أيضا لسان الدين الخطيب ت(676هـ-1376م) في قوله: « وكان الناصر جريئا على سفك الدماء.. وهو الذي بنى مدينة بجاية وسمها الناصرية... واتسعت مملكة الناصر إلى أن بايعه أهل القيروان»⁷.

أما الإدريسي فقد أسهب في وصف بجاية حيث ذكر بأنها مدينة وحاضرة المغرب الأوسط وعين

¹ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص339؛ ينظر: النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسن نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م، ج24، ص235.

² الإدريسي: المصدر السابق، ص91.

³ مختار حساني: المرجع السابق، ص4.

⁴ العبر: ج6، ص232، 231؛ ينظر: محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، تعليق: ممدوح حقي، ط2، دار البيضة العربية لنشر، 1384هـ/ 1964م، ج1، ص19.

⁵ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط8، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ج1، ص365.

⁶ العبر: ج6، ص232.

⁷ لسان الدين الخطيب: المصدر السابق، ص96.

بلاد حماد ويقول: « ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بني حماد»،¹ حيث أصبحت بجاية مدينة قائمة بذاتها بعد مجيء الحماديين إليها سنة 461هـ/1068م والذي تزامن مع توطن عدد كبير من القبائل سليم وهلال ببلاد حماد.²

وبعد وفاة " الناصر بن علناس " تولى ابنه " المنصور " ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وجعل منها معقلا لدار ملكه، وحدد قصورها وشيد جامعها.. وكان المنصور مولعا بالبناء وهو الذي حضر ملك بني حماد وشيد المصانع واختط المباني واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين،³ ولقد عرفت بجاية في عهد الحماديين رخاءا اقتصاديا وتجاريا، فكانت مقصد السفن ومحط القوافل والأمتعة والسلع التي تجلب إليها برا وبحرا واهلها مياسير تجاريا، وأيضا لعبت دورا مهما في نشر العلوم والمعارف، وذلك نظرا لما كانت تتوفر عليه من مراكز علمية كالجوامع إلى جانب ذلك كثرة العلماء وطلبة العلم، حيث يقول " حسن الوزان " معلقا على ذلك: «وفيها جوامع كافية..... يكثر فيها الطلبة والأساتذة بالإضافة إلى زوايا المتصوفة». ⁴ فيما بعد القرن 9/15م.

ويتضح لنا مما سبق أن مدينة بجاية كانت عبارة عن مرفأ صغير ولكن بعد مجيء الحماديين إليها " الناصر بن علناس " الذي أمر ببنائها فبدأت بجاية بالنمو والتطور، وأيضا هجرة عدد كبير من سكان القبائل إليها جعل منهم سندا ودعما قويا، كل هذا ساهم إلى حد بعيد في بروزها كقطب لمدن المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

ثانيا: مدن الداخل الرئيسية:

تعتبر المدن الداخلية في المغرب الأوسط من أهم مدن المغرب الإسلامي لأنها شكلت حيزا كبيرا من كتابات المؤرخين والجغرافيين الذين قاموا بوصف هاته المدن وبينوا مدى أهميتها والدور الذي لعبته في مختلف الجوانب، وكيف تطورت ونمت من مناطق عبور إلى حواضر بمواصفات المدن في العصر الوسيط ومن أهمها:

¹ الإدريسي: المصدر السابق، ص90.

² مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص132.

³ العبر: ج6، ص232.

⁴ حسن الوزان: المصدر السابق، ص50.

- "مدينة قسنطينة": وصنفت من أكبر المدن الداخلية بالمغرب الأوسط، وهي تعطينا مثالا عن نمو وتطور المدن واستمرارية التطور العمراني في نفس المكان، ولقد ورد ذكرها عند الرحالة ابن حوقل والذي كان وصفه لها وصفا موجزا في قوله: « وهي تداني ميلا ونقاوس في حالهما»¹. ويعطينا أيضا البكري وصفا لها بقوله « وهي مدينة أولية أهلة ذات حصانة و منعة ليس يعرف أحصن منها»². ومن خلال وصفه البكري لها فان مدينة قسنطينة على درجة عالية وكبيرة من الحصانة والمناعة، وذلك راجع لخصوصية موقعها وهذا ما يؤكده صاحب الاستبصار في قوله: « وهي مدينة كبيرة عامة قديمة أزلية ومدينة قسنطينة على نهاية من المنعة والحصانة ولا يعرف بافريقية امنع منها»³.

ولكن مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري تبدأ المدينة في الظهور وأصبحت بما الأسواق واشتهرت بنظام تخزين خاص للمواد الزراعية⁴.

نظرا لموقع المدينة المهم الذي يربطها بين العديد من المدن، فهي لا تبعد عن القل على مسافة يومين، وعن بجاية مسافة ستة أيام ومنها إلى مجانة يومان واكثر من ذلك بقليل تبعد عنها قالمة⁵، واستنادا لما سبق يمكن أن نقول إن الخصوصية والميزات لمدينة قسنطينة هي كلها ساهمت في تطويرها ونموها بمرور الزمن.

وتأتي "مدينة سطيف": في المرتبة الثانية بعد قسنطينة، وأصبحت بعد الفتح من المدن التي استوطنتها القبائل العربية الفاتحة، وورد في ذكر اليعقوبي للذين استوطنوا "سطيف" فقال: « بما قوم من بني أسد بن حزيمة عمال من قبل ابن الأغلب...»⁶ أشار الحسن الوزان بأن الرومان هم من بنوها في قوله: « مدينة بناها الرومان وهي محاطة بأسوار مبنية بحجر جميل ضخم ومكعب»⁷، وأصبحت من المدن الكبيرة في المنطقة، وهذا ما نجد في وصف الاصطخري لها: « انها مدينة كبيرة بين تاهرت والقيروان، وهي حصينة ولها كورة تشتمل على قرى كثيرة وعمارة متصلة وسكانها كتامة قبيلة من البربر»⁸. ولكن بعد سيطرة

¹ ابن حوقل: المصدر السابق، ص93.

² البكري: المصدر السابق، ص63.

³ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص165.

⁴ الإدريسي: المصدر السابق، ص95.

⁵ نفسه، ص96.

⁶ اليعقوبي: المصدر السابق، ص108.

⁷ حسن الوزان: المصدر السابق، ص53، 52.

⁸ الاصطخري: المصدر السابق، ص34؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص98.

الفاطميين عليها لم تعد لها أهمية خاصة طيلة القرن الرابع الهجري/10م، وذلك نظرا لسياسة الفاطميين التي أثرت على المدينة، ولكننا نجد البكري يذكر المدينة في القرن الخامس الهجري/21م بأنها: «كبيره جليله... وهو اليوم دون صور لكنها عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار»¹ ونظرا خصوصية موقع مدينة "سطيف" من حيث وسطية الترتيب بين مدن المغرب الأوسط إلى جانب ميزاتها الجغرافية التي أهلتها لأن تصبح مدينة زراعية بالدرجة الأولى وتوفرها على الكثير من المنتجات وأنها كانت خط عبور ووصل بين العديد من المناطق شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وهي محطة للقوافل التجارية كل هذه الميزات ساهمت في نموها وتطورها مع مرور الوقت لتصبح فيما بعد حاضرة بمواصفات مدن المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

أما مدينة "مقرة": هي مدينة داخلية وصفها الجغرافيون بأنها تشكل مركز للعديد من الحصون المحيطة بها، ولقد وصفها اليعقوبي في قوله: «مدينة يقال لها مقرة لها حصون كثيرة والمدينة العظمى مقرة أهلها قوم من بني ضبة، وبها قوم من العجم وحوها قوم من البربر يقال لهم كزبرة وقوم يقال لهم سارسة»². ومقرة مدينة بإقليم الزاب تقع بين مدينة طبنة ومدينة المسيلة، وهذا ما أشار إليه ابن حوقل في قوله: «ومن مقرة إلى المسيلة مرحلة»³. وقد تكون هذه المدينة قد جمعت بين كونها مكانا لمرور المسافرين والتجار، أما من الجانب الاقتصادي للمدينة وما توفرت عليه من ثمار ومحاصيل زراعية، فيذكر البكري في قوله: «إن مقرة بلد كبير ذو ثمار وأثمار ومزارع»⁴.

فوقوع المدينة في منطقة عبور كان له دورا كبيرا في المنطقة بالإضافة إلى الخصائص الزراعية التي ذكرها الجغرافيون، كل هذه العوامل ساعدت على نمو وتطور المدينة فيما بعد لتصبح لها أهمية في تلك الفترة.

أما "مدينة المسيلة" فان معظم الجغرافيين الذين كتبوا عن مدن المغرب الأوسط، لم يغفلوا في وصفهم وكلامهم عن ذكرها، وهم يتفقون في أن المدينة مستحدثة من قبل أبي القاسم إسماعيل بن عبيد الله، ولكن

¹ البكري: المصدر السابق، ص76؛ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص66؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص98.

² اليعقوبي: المصدر السابق، ص108.

³ ابن حوقل: المصدر السابق، ص85.

⁴ البكري: المصدر السابق، ص51.

يختلفون ربما حول الخصائص والمميزات العامة للمدينة والدور المنوط بها، وذلك راجع لكل جغرافي ورحالة أو مؤرخ، ولقد اختير موضع المدينة في بسيط من الأرض، وقد بينت بالقرب من مدينة قديمة وهذا ما أكده البكري¹ في قوله: «على مقربة منها مدينة للأول خربة يقال لها بشيلقة فيها جدولاً من ماء عذب...»¹، أما ابن حوقل يصفها بأنها: «مدينة محدثة استحدثها علي بن الأندلسي أحد خدم آل عبيد الله وعبيدهم»². كما نجد وصف الوزان لمدينة المسيلة يتوافق مع ما جاء به البكري من وصف لها بحيث يذكر "الوزان" في قوله: «مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم الصحراء نوميديا...»³. ولكن يورد "ابن عذارى" رواية التأسيس في أحداث سنة 313هـ فيقول: «وكان الأمير أبو القاسم بن عبيد الله أمر ببناء مدينة المسيلة سنة 313 هـ... والشيعية تسمى المسيلة بالمحمدية»⁴. كما استفادت المدينة من الإشراف الرسمي للسلطة الفاطمية في عملية البناء فقد: «دفع علي بن حمدون الأندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها»⁵. أما بالنسبة لموقع المدينة والأبعاد التي تفصلها عن باقي الحواضر والمدن الرئيسية يمكن أن نقول أن لها أهمية كبيرة ودورا بارزا كونها نقطة عبور ووصل بين المناطق ومحطة للقوافل التجارية، وذلك راجع إلى توسطها منطقة المغرب الأوسط، فهي تبعد عن طبنة على مسافة مرحلتين⁶ ومن مقررة إلى المسيلة مرحلة⁷، ومن مدينة سطيف على على مرحلتين من المسيلة⁸، أما أشير تبعد عنها بمرحلتين⁹ كما تبعد عن المهديّة بستة عشر مرحلة وعن القيروان بأربعة عشر مرحلة¹⁰، وهذه الأبعاد والمسافات تجعل من المسيلة نقطة ربط ووصل بين مختلف مناطق المغرب الأوسط ومهما الدور الذي لعبته المدينة فإنه لا يمكن عزله عن الأوضاع العامة التي كانت

¹ البكري: المصدر السابق، ص59.

² ابن حوقل: المصدر السابق، ص85؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص85.

³ حسن الوزان: المصدر السابق، ص52.

⁴ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج س كولان وليفى بروفنسال، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1980م، ج1، ص215.

⁵ العبر: ج4، ص51.

⁶ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص214.

⁷ ابن حوقل: المصدر السابق، ص85؛ المقديسي: المصدر السابق، ص196.

⁸ البكري: المصدر السابق، ص60.

⁹ ابن حوقل: المصدر السابق، ص88.

¹⁰ مرمول محمد الصالح: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص

تعرفها مدن المغرب الأوسط، وأيضا العامل الاقتصادي لا يمكن إغفاله، فتخطيط المسيلة لم يكن فقط لأغراض سياسية وأمنية بقدر ما كان هذا الاختطاط مرتبطا بعامل اقتصادي له مساس بتأمين المسلك التجاري سلجماسة، تلمسان، بلاد الزاب، وافريقية، لان المسلك الشمالي مهدد من الأمويين وحلفائهم، والمسلك الصحراوي يسيطر عليه الخوارج ويطون قبيلة زناتة بصفة عامة¹. ونظراً لموقع المدينة الاستراتيجي الاستراتيجي الذي ساهم في نمو وتطور المدينة من منطقة عبور ونقطة وصل بين المناطق إلى حاضرة من حواضر المهمة في المغرب الأوسط.

في تلك الفترة، أما "مدينة أشير" ارتبطت بمؤسسها "زيري بن مناد"، ونجد في بعض المصادر من يسمى الحينة "بأشير زيري" وهو قائد كان من أعظم ملوك البربر²، ويذكر "ابن حوقل" والذي لم يتوسع كثيرا في وصفها مقتصرًا على أن المدينة: « حصن يسكنها آل زيري بن مناد ولها سور حصين... »³.

وقد مرت عملية البناء أولاً باختيار الموقع المناسب حسب "زيري بن مناد" بدأ الاستعدادات فقد: « أمر زيري بإحضار البنائين والنجارين من حمزة والمسيلة وطبنة »⁴.

إذ يرى بعض الباحثين أن المدينة لم تنشأ لغرض عسكري ذلك أن: « الصنهاجيين لم يكونوا قد أعلنوا تأييدهم للفاطميين بل كان نتيجة حتمية لما بلغه بعض الصنهاجيين من الثراء نالوه خاصة بانتصارهم المتواصلة على زناتة »⁵. ومن خلال اطلاعنا على المصادر التي تدل على أن الناس سكنوا المدينة لأغراض أمنية بالدرجة الأولى: « وقصدها أهل تلك النواحي طلبا للأمن والسلامة فصارت مشهورة »⁶. أما ابن

¹ الحبيب الجناحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 168.

² ابن خلدون: العبر، ج6، ص 203.

³ ابن حوقل: المصدر السابق، ص90.

⁴ النويري: المصدر السابق، ج24، ص 160-161.

⁵ جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص 368.

⁶ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص 202-203.

خلدون" فيقول أن زيري: « اختط مدينة أشير للتحصن بها سفح جبل المسمى تيطرا¹ ... وحصنها بأمر المنصور وكانت أعظم مدن المغرب»².

وموقع المدينة المهم يدل عليه الأبعاد التي تفصلها عن باقي المدن الرئيسية بالمنطقة، بالإضافة إلى حصانة الموقع، فهي تقع على سهول التل الغربية وتبعد عن المسيلة بمرحلتين، وبين المدينتين منزل " يتزله المار بينهما في وادي المالح"³، وهذا الموقع جعل مدينة أشير تقع وسط شبكة طرق مهمة ورئيسية بشمال المغرب الأوسط، أي أنها كانت منطقة عبور ونقطة وصل بين مختلف المناطق، أدت إلى نموها وتطورها بعد فترة من الزمن لتصبح حاضرة من حواضر المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

مدينة تاهرت:

- تعتبر "تاهرت" من بين أهم المدن الداخلة في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط حيث وصفتها المصادر التاريخية والجغرافية بكثير من الخصوصية والتميز بين المدن في تلك الفترة، وهي من المدن الإسلامية المحدثّة، فمن الملاحظ أن بلاد المغرب الأوسط لم تشهد ظهور أية مدينة جديدة منذ الفتح الإسلامي حتى بناء مدينة تيهرت، وربما كان السبب الرئيس يتمثل في تلك الحروب والثورات المتكررة التي شهدتها المنطقة، وبالتالي فقدان عنصر الأمن والاستقرار. وهكذا كانت تاهرت هي المدينة المحدثّة في البلاد⁴.

ومدينة تيهرت أختطت في الشق المغربي للمغرب الأوسط على نمط الأمصار الإسلامية، ويعود تأسيسها إلى "عبد الرحمان بن رستم"⁵ الذي خرج هو وأصحابه يطلبون مكانا منيعا يتخذونه مركزا يثون

¹ هو جبل تيطري.

² العبر: ج6، ص 203.

³ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 88.

"تيهرت": وهي كلمة بربرية يرى المستشرقان الفرنسيان المتخصصان في اللسان البربري، أن "تيهرت" كلمة تعني عند أحدهما "محطة" وعند الآخر "إقامة" ويبدو جليا أن لا فرق كبير بين المعنيين، إذ المحطة للإقامة أو الإقامة بالمحطة فكلاهما جائز، ولا شك أن تيهرت لعبت هذين الدورين منذ العهد الروماني فالرستمي إلى يومنا هذا، ينظر إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية (160-196هـ/777-909م) -دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية-، ط1، م، 1985، ص90.

⁴ جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص 343.

⁵ عبد الرحمن بن رستم(160 - 171هـ): هو مؤسس الدولة الرستمية وقان ببناء مدينة تيهرت، اشتهر ببراعته في علوم الدين واللغة والفلك، مما جعله يقبل على تأليف كتاب يفسر فيه القرآن الكريم، ينظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية، دت، ص 488.

يبتون فيه دعوتهم، وينشرون مبادئهم فانتهم بهم المطاف واختاروا أفضل بقعة يستقرون بها في تاهرت، ثم شرعوا في بناء مدينة تيهرت سنة (144هـ)¹ مع الإباضية الذين انظموا إليه في المنطقة مما يدل على أن المذهب الإباضي قد وصل إلى هذه المنطقة قبل إلتجاء "عبد الرحمان بن رستم" إليها، أما عن اختيار منطقة تيهرت من قبله فيرجع لعدة أسباب منها:

- 1- الموقع الاستراتيجي على اعتبارات أن المنطقة كانت منحصرة بين الكتل الجبلية، مما قد يجعل من الصعب الوصول إليها من ناحية الغرب أو الشرق فهي بعيدة عن الخطر العباسي².
- 2- تقع تيهرت في منطقة محاطة بقبائل أكثر أفرادها مشهورين بانتماهم للمذهب الإباضي على حد قول "البكري" مثل هوارة وزوافة ومطماطة وزناتة³.
- 3- تيهرت منطقة غنية اقتصاديا فهي تشتهر بشرواتها الزراعية المتنوعة، وكثرة مصادر مياهها وهذا جعلها عاصمة تجارية هامة بين مدن المغرب الكبرى⁴.

وبذلك فقد حرص الإباضية على توفير أسباب البقاء سياسيا، عسكريا واقتصاديا، وحسب الروايات الإباضية، انه لما استأنس الإباضيون بأنفسهم قوة على مجابهة الأعداء، اختاروا عبد الرحمان بن رستم أميراً عليهم ثم بايعوه بالإمامة⁵، ومدينة تيهرت من خلال وصف كتب الجغرافيين لظروف العامة بها، بما، ومن هؤلاء "ابن حوقل" الذي قال عنها "هي مدينة قديمة مفردة العمل والاسم والدواوين"⁶، وحينما وصفها بكلمة قديمة أنها مازالت مدينة صغيرة في تلك المرحلة، ولكن المدينة بدأت في التطور شيئا فشيئا،

¹ ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق: محمد ناصر و إبراهيم مجاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 28؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 147.

² الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلابي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م، ج1، ص 86.

³ البكري: المصدر السابق، ص 67؛ الباروني سليمان باشا: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ط1، دار الحكمة، لندن، 2005م، ج2، ص 4.

⁴ المرجع نفسه: ج2، ص 9؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 196؛ محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب - حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، ط3، الكويت، 1987م، ص 95-97.

⁵ ابن الصغير: المصدر السابق، ص 30؛ أبو زكرياء: سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979م، ص 53؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 40؛ الشماخي: كتاب السير، تحقيق: أحمد بن مسعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1992م، ج1، ص 124.

⁶ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 95.

وهذا ما نجده في قول البكري الذي يصفها بأنها: «مدينة مصورة لها ثلاث ابواب... وهي على سفح جبل يقال له جزول ولها قسبة مشرقة على السوق تسمى المعصومة»¹.

وهذا ما أكده "الإدريسي" في وصفه لمدينة تاهرت، بأنها تطورت وحافظت على الجزء القديم واستحدثت مدينة جديدة في قوله: «ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والقديمة منها ذات سور وهي على قبلة جبل قليل العلو وبها جمل من البربر»². أما "صاحب الاستبصار" فذكرها «بأنها مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر، ولها قسبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة ومدينة تيهرت في سفح جبل يسمى قرقل»³، وأما اليعقوبي يصفها تاهرت بأنها «مدينة عظيمة جليلة المقدار تسمى عراق العجم فيها وادي الشلف وعليها قرى وعمارة»⁴. وهذا وصف اعتبرها مدينة كبيرة وعظيمة ولقبها بعراق العجم أي أن البربر توفر لهم من حداثة العمران كالعراق، وهذا دليلاً على أن ازدهار العمران في المدن يرتبط بتوسع ديمغرافي قوي، فقد كانت بلاد البربر في الفترة الوسيطة مستودعا للاحتياط من الرجال، كما يشهد بذلك اجتياح أصحاب الجمال من البربر للصحراء، وفتح اسبانيا، وفتح صقلية في عهد الأغالبة، ثم غزو مصر وسورية في عهد الفاطميون بجيوش من أصل بربري⁵، وينطبق هذا على مدينة تيهرت التي وجدت في وسط قبلي غذاها بالعنصر البشري، الذي كانت المدينة تحتاج إليه في مختلف الجوانب.

واستمرت عمليات بناء ونمو المدينة حتى إذا ما كانت زيارة الوفد الثاني القادم من البصرة والمحمل بالمعونة لإخوانهم بالمغرب يخبرنا بن الصغير عن رسل هذا الوفد: «أتت البلد ونزلت بالموضع الذي نزل به والأشياء، قد حالت وذلك أنهم نظروا إلى قصور قد بنيت والى بساتين قد غرست وإلى أرجاء قد نصبت والى خيول قد ركبت والى حفدة اتخذت السور والعييد والخدام قد كثرت»⁶، ويفهم من قول ابن الصغير

¹ البكري: المصدر السابق، ص 66-67.

² الإدريسي: المصدر السابق، ص 87.

³ مؤلف مجهول: ص 178.

⁴ اليعقوبي: المصدر السابق، ص 109.

⁵ موريس لومبار: الإسلام في مجده الأول من القرن 2هـ - 5هـ/8-11م، ترجمة: إسماعيل العربي، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1990م، ص 211.

⁶ ابن الصغير: المصدر السابق، ص 38؛ جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 348؛ احسان عباس: "المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين" مجلة الاصاله، ع/45، ماي 1975، ص 23-24.

أن المدينة حدث فيها نمو وتطورا كبيرا، أدى إلى تغيير مستمر في أحوال المدينة في جميع المجالات في عهد عبد " الرحمن بن رستم " ومن بعده في عهد ابنه " عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم " ¹.

وقد وصف "المقديسي" تاهرت باسم القصبة²، أيضا «هي بلخ المغرب قد أحرق بها الأنهار والتقت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبتت حولها الأعين وجل بها الإقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب»³. ومن خلال وصف المقديسي لمدينة تيهرت بالقصبة وهو مفهوم يشير إلى المستوى الذي بلغته تيهرت، من التطور العمراني، بحيث وصفها بأنها لا تقل أهمية من الحواضر والعواصم الأخرى، وقد أكد " ابن الصغير " على هذا بقوله: « ليس احد يتزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه... وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين»⁴.

أما في عهد الإمام "الأفلاح بن عبد الوهاب" (208-258هـ / 823-871م) تولى الإمامة بعد وفاة والده مباشرة، تلقى أفلاح تكويننا سياسيا وعسكريا على يد والده، وبذلك اكتسب مؤهلات جعلته يصل إلى الإمامة⁵، تميز عهده بالازدهار الاقتصادي وتطور الحركة العلمية، وهذا ما أشار إليه إبراهيم⁶، فأصبحت "تيهert" في عهده تعرف توسعا في نسيجها العمراني وإقبالا عليها من كل المناطق، فيصورها "ابن الصغير" في قوله: «... وعمرت معه الدنيا، وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والأفاق بأنواع التجارات وتنافس الناس في البنين...»⁷.

¹ هو الامام عبد الوهاب بن رستم الامام الثاني للدولة الرستمية (171-208هـ) ودام حكمه أربعين عاماً وله كتاب نوازل نفوسة يرد فيه على المشكلات الفقهية النازلة في الجبل، وفي عهده امتدت الدولة الرستمية إلى أقصى حدودها من سرت شرقا الى تلمسان غربا، ينظر: ابن الصغير، المصدر السابق، ص 43.

² القصبة: حوف القصر وقيل القصر، وقصبة البلد مدينته؛ وقيل معظمه، وقصبة السواد مدينتها، والقصبة حوف الحصن بنى فيه بناء هو أوسطه، وقصبة البلاد مدينتها، وقصبة القرية؛ ابن منظور: لسان العرب، مج5، ص 95.

³ المقديسي: المصدر السابق، ص 185.

⁴ ابن الصغير: المصدر السابق، ص 36.

⁵ رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ج3، ص 85.

⁶ الدولة الرستمية: ص 121؛ محمود إسماعيل: فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني، ط1، سيناء للنشر، القاهرة، 1995م، ص 169.

⁷ ابن الصغير: المصدر السابق، ص 61.

ويمكن أن نلاحظ مما سبق أن مدينة تيهرت في عهده اتسع عمراتها وتجاوز المدينة ليشمل نواحيها وأرباضها وهذا يدل بشكل قاطع على مدى الازدهار الذي بلغته المدينة، في وقت سلكت فيه سياسة مسالمة مع جيرانها اكسبها استقراراً وأمناً ساعد على هذه الحركة بشكل كبير، وهذا ما يتوافق مع قول الإدريسي عن ذلك. أن المدينة: «بها ناس وجمل من البربر ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة وبأرضها مزارع مضياع حجة وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن وأما البقر والغنم بها فكثيرة جدا والعسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة»¹. ونتيجة لذلك يتطور نشاط التبادل التجاري لهذه المدينة التي أصبحت مستقر للتجار فزاد العنصر الغريب في العاصمة الرستمية وزاد النشاط التجاري الداخلي حيوية، إذ أن الكثير منهم اتخذوا تيهرت مستقراً لهم، ولم يقصدوها عابرين أو سائحين بل من اجل ممارسة الأعمال التجارية والحرفية في مدينة تيهرت².

ومما سبق ذكره يمكن استنتاج أن مدينة تيهرت أسسها عبد الرحمان بن رستم أصبحت عاصمة لدولة الرستميين وهي كانت عبارة عن منطقة عبور أو خط مرور للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب والأندلس والغرب والشرق ثم شيئاً فشيئاً بدأت في التطور والنمو فتحوّلت إلى حاضرة كبيرة بمواصفات المدن في العصر الوسيط، وذات أهمية بالغة في المنطقة في تلك الحقبة الوسطية في بلاد المغرب الإسلامي.

¹ الإدريسي: المصدر السابق، ص 87.

² إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 176.

الفصل الثالث

علاقة البادية والمدنية

(تفاعل)

أولاً: البادية مصدر لديموغرافيا

المدن

ثانياً: المدينة منطقة استقطاب

لطلبة العلم من محيط البادية

ثالثاً: العلاقات الاقتصادية

أولاً: البادية مصدر لديموغرافيا المدن :

قبل الحديث عن العلاقة بين البادية والمدينة يجب علينا التطرق إلى مجتمع البادية، لأن معظم المصادر التاريخية تفر أن المجتمع هو أساس تكوين النظام القبلي وعليه فإن القبيلة تأتي على رأس التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدوية، وهي جماعة من الناس ينتمون إلى جد واحد مشترك، يسكنون في منطقة واحدة، فكان على الفرد هذا أن يهب قبيلته كل ولائه وجهده وطاقته مقابل أن تقوم بحمايته ومساعدته من أجل أن يشعر بالأمن، ولكن يجب عليه أن يقوم بواجباته اتجاه قبيلته لينال هذه الحقوق والعصبة أمر مهم، وهو مصدر لقوتها والحفاظ على وجودها¹، والقبيلة كوحدة سياسية مستقلة تستند إلى هيئات سياسية تنظيمية مقننة بأعراف وعادات وتقاليد موروثية، تقوم بوظائف متعددة غايتها خدمة المصلحة العامة للقبيلة ومن أجل ضمان التوازن الداخلي بين الأسر والعشائر المكونة للقبيلة والحيلولة دون قيام نزاعات فيما بينها².

والقبيلة تعطي لكل فرد موقع اجتماعي خاص به لا يستطيع تجاوزه بسبب الموروث القبلي، وهو على النحو التالي: شيخ القبيلة³، ومجلس القبيلة، وعامة القبيلة، وطبقة العبيد⁴

أما بالنسبة لتقوية النسيج العمراني للمدن، وحسبنا في ذلك ما ذكره ابن خلدون (بأن بحاية صارت دارا لقبائل زواوة الذين شكلوا رافدا سكانيا وذلك بتشجيع من الناصر ابن علناس(481_454هـ/1062_1089م) وابنه المنصور(481_498هـ/1089_1104م) اللذان

¹ عبد الكريم جودت : المرجع السابق، ص 251 .

² مفتاح خلفات : المرجع السابق، ص 69 .

³ شيخ القبيلة: كان يمثل هرم السلطة في القبيلة، وهو الذي يتولى رئاسة ورعاية وإدارة شؤون القبيلة، وذلك من خلال توفر شروط ليحصل على هذه المرتبة الكبيرة والمتمثلة في الشروط الآتية ذكرها وهي: - أن يكون له عصبية قوية كبيرة تشد أزره وتعينه وزعامة القبيلة ورئاستها غالبا ما تكون وراثية أيضا ينظر ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، 125، 124 و محمد ناصر: جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب في العصر الوسيط (القرن 6هـ/12م)، نموذجاً: القسم الأول أطروحة جامعية، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1987/1988م، ص 219 و محمد نجيب بوطالب : سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي، ط1، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان ، 2002م، ص108.

⁴ المجلس القبلي: هو مجلس يعين ويساعد شيخ القبيلة، عامة القبيلة: وهم يمثلون وسط الهرم القبلي، طبقة العبيد: وهم في قاعدة الهرم القبلي، ينظر مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص70، عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص252، 254، ابراهيم الفادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ط1، دار الطباعة والنشر، بيروت، 1998م، ص230، 233.

عملا على استقطاب سكان البادية التي تقع في المحيط الجغرافي للمدينة لاسيما من منطقة زاووة¹، وقد فسر ابن خلدون في مقدمته هذا التزوح الى ما قدمه الناصر من امتيازات جبائية حيث أنه أسقط على سكان بجاية الضرائب من أجل تشجيع أهل البادية للتوطن في المدينة وأيضا لتحقيق تطلعاتهم الاقتصادية بالبحث عن مواطن أخرى للاستزاق بإمتهان حرفة معينة تستجيب لمتطلباتهم المادية² ومن الشواهد التي تعكس حجم تواجد الزواويين ببجاية خلال هذه الفترة هو دفاعهم عنها ضد الغزو الموحدى سنة 547هـ / 1148م مما يعطي دليلا على أنهم شكلو شريحة عريضة للمجتمع البجائي وأن ذودهم كان من منطلق أنهم أهل المدينة³، وجعل منهم سندا ودعما قويا ساهم إلى حد بعيد في صناعة تاريخها الاقتصادي والثقافي وبروزها كقطب لمدن المغرب الأوسط وهو ما أشارت إليه تقارير كبار الرحالة الجغرافيين⁴.

عرفت بلاد المغرب الاسلامي ظاهرة البداوة منذ أقدم العصور وباعتبارها منطقة قاحلة قليلة السهول وتندر فيها الأنهار فهي مؤهلة أكثر من غيرها لتقدم الحياة الرعوية والبدوية مع العلم أن البداوة تسبق دائما مرحلة الاستقرار⁵. وقد ذكر ابن خلدون: « أن أحوال الحضارة ناشئة من أحوال البداوة و أنها أصل لها...»⁶ و يتم الانتقال إلى مرحلة العمران الحضري إذا توفر فائض في الإنتاج الزراعي بالبادية، قادر على توفير المعاش للمشتغلين في الصناعة والتجارة والسياسة، فالمجتمع الحضري يلد من رحم البادية، وهي نظرية أثبتتها الدراسات التاريخية⁷، غير أن ابن خلدون توصل إليها من قبل إذ قال: « ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء هؤلاء المنتحلون للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغني و الرفه، دعاهم ذلك إلى السكن والدعة و تعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات و الملابس و التأتق فيها و توسعت البيوت و

¹ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 120_152.

² المقدمة: ص 270.

³ برونشفيك روبر: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، 1988م، ج1، ص 417.

⁴ الإدريسي: المصدر السابق، ص 116 و مفتاح خلفات، المرجع السابق، ص 151.

⁵ إبراهيم جدلة : المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي، ضمن أعمال الملتقى

الدولي: القبيلة - المدينة - المجال في العالم الغربي الإسلامي الوسيط ، تونس 10-12 أفريل ، 2003 م ، ص 154.

⁶ المقدمة: ص 116.

⁷ محمد حسن: المرجع السابق، ص 91.

اختطاط المدن و الأمصار¹ للتحضّر² و قوله أيضا: « أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار لأنّ الأمور الضرورية في العمران ليست كلّها مجودة لأهل البدو، وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح ، وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكليّة من نجار وحيّاط وحدّاد... وإنما بأيديهم أعواضها من مغلّ الزراعة وأعيان الحيوان ألبانا و أوبارا... ممّا يحتاج إليه أهل الأمصار»³، و هكذا يتمّ الانتقال من العمران البدو إلى الحضّر تدريجيّا.

و ممّا سبق نستنتج أنّ البدو حاجتهم إلى الأمصار في الضروري وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي والكمالي، فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم، إن أهل الريف والبادية يتجهون إلى المدن للحصول على ما يلزمهم من ألوان البضائع التي يفتقدونها في بيئتهم من ناحية، ولتصريف الفائض من إنتاج أقاليمهم من ناحية أخرى.

ثانيا: المدينة منطقة استقطاب لطلبة العلم من محيط البادية

لقد اشتهرت البوادي عند فقهاء المدن بضعف ثقافتها الدنيّة، وبحضور الأعراف بكثرة في معاملتها، لكنّ هذا لا ينفي مطلقا ذلك المجهود المستمرّ الذي بذل من أجل احتواء و تطويع هذه الأعراف،⁴ لذلك عمل أهل البادية من أجل جلب المعلّمين لتدريس أبنائهم و تعليمهم أمور دينهم، و من ذلك ما ذكر في النوازل من أسئلة عن أجرة المعلّم: « سئل عمّا يأخذ المعلّم من زبدة في البادية في فصل الربيع، يجعلون له مخضّة زبدة، عن كلّ بيت من بيوت الحلبة على من عنده ولد و عدد من الأولاد، يسمّونه خميس الطالب»⁵، لأنّ البادية كانت تفتقر إلى وسائل العلم من أماكن للتدريس والفقهاء فمن أراد طلب العلم رحل منها، لذلك شدّ كثير من طلبة العلم رحالهم إلى مختلف الحواضر في بلاد المغرب والمشرق الإسلامي،

¹ المصر :جمعه أمصار، والمصر هو الكورة وجمعها أمصار ، ومصروا الموضع ،أي جعلوه مدينة بعينها؛ ابن منظور :المصدر السابق، ج5، ص176.

² المقدّمة: ص114

³ نفسه: ص 141.

⁴ محمد فتحة: النوازل الفقهية واجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن (6 الى 9هـ / 12_15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص338.

⁵ المغيلي المازوني: الدرر المكونة في نوازل مازونة. تحقيق: مختار حساني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 2009م، ج 3، ص 382.

وخاصة أن فيهم من نشأ في إقليم البادية التي لا يجد فيها الطالب التعليم الذي هو صناعي والبادية تفتقر للصنائع¹، لذا كان لابد لهم من طلبه في الأمصار المستبحرة²، وحسبنا ما ذكره ابن خلدون أن مدينة بجاية تحولت إلى منارة للعلم يقصدها الطلاب من مختلف البوادي ومدن المغرب الأوسط³، حتى أن المقرئ صعب عليه إحصاء عدد الراحلين إلى بلاد المشرق من المغاربة⁴. ولكن سنذكر منهم عينتا من الذين رحلوا إلى طلب العلم من الزواوين ويأتي في مقدمتهم أبو زكريا يحيى الزواوي (ت 611هـ — 1210م) الذي قرأ ببني عيسى من قبائل زاووة، ثم قلعة بني حماد على يد الشيخ صالح أبي عبد الله الخراط، ثم رحل إلى المشرق ثم عاد إلى بجاية بعلم غزير وتصدر للتدريس علوم الحديث وإقراء القرآن والتفسير بالجامع الأعظم⁵.

ومنهم أيضا الفقيه الصالح أبي يوسف يعقوب الزواوي المنقلاقي (ت 690هـ - 1290م) فبعد أن أكمل تحصيله على يد الفقيه محمد بن عبد العزيز (ت في نهاية القرن السابع هجري - 13م) رحل إلى افريقية وبعد عودته درس بالجامع الأعظم أيضا⁶.

كما تبوأ أسرار من البادية قمة الهرم والاجتماعي لما وصلت إليه من مناصب ومهام فكان منهم الأئمة والمدرسون والفقهاء وشيوخ الفتية وحسبنا دليلا على ذلك أن بعض الأسرار من قبائل زاووة صنعت من العائلات الوجيعة لاسيما أن المصادر التي ترجمت لهؤلاء الإعلام أوردت أسمائهم بسيل من الألقاب التشريعية منها (الإمام المجتهد، علم الأعلام، قطب الفقهاء، الحافظ، المبجل، وواحد عصره)، وغيرها وهذا كله يعكس مكانتهم الدينية والعلمية وبخاصة من استقر ببجاية نذكر منهم على سبيل المثال أسرة الغبريني (ت 704هـ - 1304م) وولديه سعيد وأبي القاسم (ت 770هـ - 1370م)⁷.

¹ مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 261.

² ابن خلدون: المقدمة، ص 141.

³ العبر: ج 6، ص 206.

⁴ المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب، شرح: مريم قاسم الطويل، يوسف علي الطويل، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج 2، ص 225، 226.

⁵ الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من علماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، 1970، ص 135، 136.

⁶ مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 264.

⁷ التنبكي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدباج، تحقيق: أبو يحيى عبد الله الكندري، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 2002م، ص 48.

أما العلماء الذين فضلوا التوطن في إقليم البادية لم يقل دورهم أهمية من الأطر التي استقرت في الحواضر، سواء في مجالس الوعظ والتذكير أو تصدرهم لمنابر الإمامة في المساجد، كما نابوا عن القضاة في الفصل بين المتخاصمين في البادية وتوثيق الروابط بين أفراد العشيرة الواحدة¹

ونستنتج من حصاد ما سبق أن رحلة طلب العلم من البادية إلى المدينة كان لها دورا كبيرا في مد جسور التواصل الفكري والثقافي بين البادية والمدينة في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط .

¹ مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 224.

ثالثا: العلاقات الاقتصادية :

ساد الاعتقاد لمدة طويلة أن النشاط الوحيد لقبائل البدوية، وهو العامل العسكري (الارتزاق)، لكن رغم أهمية هذا النشاط، فإن جموع البدو كانت لهم مشاركة هامة في حياة الاقتصاد على جميع المستويات الإنتاج والتبادل والاستهلاك.¹

- أهمّ المنتوجات الزراعيّة في المغرب الأوسط:

كانت بلاد المغرب الأوسط مزدهرة في المجال الزراعي، فانتشرت البساتين و المزارع، و يظهر هذا من خلال إشارات الرّحالة المسلمين، و من خلال إشارة إلى رخص الأسعار، حتّى أنّ ابن أبي زرع يذكر أنّه في سنة 380هـ: «كان الزرع لا يوجد من يشتريه لكثرتة و كان الحراثون يتركونه و لا يحصدونه»² و لقد لعبت عدّة عوام و تضافرت حتّى و وصلت إلى هذا المستوى و هذا ما أكده ابن خلدون حينما صنّف الزراعة بأنّها تقتضي النظر في النبات من حيث تنميته و نشوؤه بالسقي و العلاج المنبت و صلاحية الفصل و تعاهده بما يصلحه و يتمّه من ذلك كلّ.³

و قد ساعدت تعدد عوامل طبيعية بلاد المغرب الأوسط نفسها هذا الازدهار، فهي معروفة بخصوصية تربتها و تنوعها بحيث تناسب مختلف أنواع المزروعات، أضف إلى هذا وقوعها في المنطقة المعتدلة الدافئة و إنّ أمطارها هي أمطار حوض البحر الأبيض المتوسط.⁴

¹ إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص 176.

² ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصورة، الرباط، 1973م، ص 63.

³ المقدّمة، ص 376.

⁴ أمحمد بوشريط: الزراعة بالمغرب الأوسط الإمكانات والخصائص، "مجلة الناصريّة للدراسات الاجتماعية و التّاريخيّة"، العدد 4، الجزائر، جوان 2013م، ص 369؛ عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 26.

الحبوب وتأتي في مقدّمة هذه المنتجات زراعة القمح والشعير والحنطة،¹ و قد كانت زراعة الحبوب نقلّة نوعيّة في حياة البادية و بداية مسار جديد في الاتجاه نحو الاستقرار و الارتباط بالأرض ، و هذا ما أكّده الكثير من المصادر على وفرة الحبوب و توزّعها في بلاد المغرب الأوسط،² و هو ما ذكره ابن حوقل في معرض حديثه عن بادية المغرب الاوسط بقوله: « و لهم من مزارع الحنطة و الشعير ما يزيد على حاجتهم» و قوله أيضا: « القمح بها و الشعير في أكثر أوقاتها»³ و من أهمّ السهول الحبوب في المغرب الأوسط فمثلا، سهل عنّابة الذي ساهم في إنتاج الحبوب بكميّات كبيرة، وأيضا اشتهر سهل قسنطينة بخصوبته حتّى بلغت مردوديته ثلاثين ضعف ما يزرع فيه و هي نسبة مرتفعة في تلك الفترة، و كان مناخ قسنطينة القارّي ملائم لحزن الحبوب⁴

مدّة طويلة دون أن يفسد، و لذلك كانت المنازل تحتوي على مطمورتين⁵ أو أكثر للحبوب منقورة في الحجر⁶.

كان سكّان القبيلة الواحدة يتعاونون في زراعة حقولهم و إعارة الدواب لبعضهم البعض في حرث الأرض و جمع المحاصيل و في عمليّة الدرس،⁷ و بالإضافة إلى زراعة الحبوب فإنّ المصادر تقدّم لنا لائحة

¹ الإدريسي: المصدر السّابق، ص 117؛ ينظر: سمية مزور: مقاربات حول مستوى معيشة التجار والحرفيين في المغرب الأوسط، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، ع4، الجزائر، جوان 2013م، ص230.

² محمّد حسن: المرجع السّابق، ص 452.

³ صورة الأرض: ص 77-87.

⁴ تذكر المصادر التاريخية أنّ سكان المناطق الجبلية كانوا ينتحون مطامير في الصخور لحفظ الحبوب، و منهم من يحفظه في سنبله في الأندر بعد تطينه. عبد الكريم جودت: المرجع السّابق، ص 40، 41، 42.

⁵ المظورة أو الأهراء أو المخازن: تخزّن فيها المحاصيل الزراعيّة، عرف المغرب الأوسط في العهد التلمساني اتخاذ المطامير ومن ذلك انه كان لوالد الفقيه ابن مرزوق الحفيد مطامير من القمح والفحم واللحم المؤخر والزيت ، وكان يتصدق بكل ذلك في أيام الثلج ، فلا يرجع إلى بيته حتى يفرغ المظورتين؛ ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب (ت1379/هـ781م): المناقب المرزوقية ، تحقيق: سلوى الزاهري ، ط1، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية - مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء المغرب، المغرب، 1429هـ / 2008م، ص190-191.

⁶ محمّد حسن: المرجع السّابق، ص 453.

⁷ الونشريسي: المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1981م، ج 10، ص273؛ يحيى أبو المعاطي محمّد عبّاسي: الملكيات الزراعية واثارها في المغرب والاندلس(238-488هـ) / (852-1095م)، دراسة تاريخية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه مرقونة، اشراف: طاهر راغب حسين، 2000م، ص 638.

بمختلف أنواع الأشجار المثمرة من زيتون و تين و غيرها، و تعدّ شجرة الزيتون¹ من أهمّ الأشجار التي تنمو في المغرب الأوسط في كثير من المناطق، و كثرة النوازل التي تخصّ الزيتون، و هذا دليلاً واضحاً على اهتمام سكّان المغرب الأوسط في البادية بزراعة أشجار الزيتون، و من الأشجار المثمرة الأخرى شجرة التين، التي تعتبر من أكثر الثمار المعروفة في بلاد المغرب الأوسط وباديته التي كان سكّانها يقومون بغراستها، كما كان العنب² واسع الانتشار، و إلى جانب هذه الأشجار وجدت أشجار الخوخ و الرمان و التفّاح³ والأجاص، و ممّا سبق يمكن القول بأنّ بلاد المغرب وباديته تميّزت بوفرة المنتج الزراعي⁴ وذلك لتوفّر عوامل ساعدت على ذلك.

أهمّ الحرف في البادية:

- **حرفة الفلاحة:** إن أولى الحرف التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبادية هي حرفة الفلاحة،⁵ إذا تعدّ من الحرف المعاشية البسيطة لارتباطها بالمحيط، و تقوم على الاشتغال بكلّ ما له علاقة بالأرض من زراعة⁶

¹ تعدّ غراسه أشجار الزيتون من أقدم و أهمّ الزراعات في منطقة زاوية و بلاد المغرب سواء للقيمة الغذائية أو الصحيّة أو لدخلها التجاري. مفتاح خلقات: المرجع السابق، ص 195.

² العنب: كانت زراعة الكروم في بلاد المغرب الأوسط واسعة الانتشار؛ ينظر: ابن حوقل: ص 86؛ عبد الكريم جودت: ص 49.

³ التفّاح: عرفت بلاد المغرب الأوسط زراعة التفّاح فاشتهرت جيّلاً بإنتاجه منه وكان جبل زلدوى فيه جميع الفواكه من التفّاح الجليل؛ ينظر: عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 45.

⁴ محمّد حسن: المرجع السابق، ص 443-444.

⁵ تجدر الإشارة إلى أن فئة العلماء كانوا يشتغلون في البادية في حرفة الفلاحة، فقد كان ابن مرزوق يمتهن ذلك، كما أن ابن الحاج التلمساني (ت 681هـ/1281م)، الذي استوطن تلمسان هو وبنوه كانوا يجترفون حرفة الفلاحة؛ ينظر: ابن مرزوق: **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولاي أبي الحسن**، دراسة وتحقيق: ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ/1981م، ص 146؛ يحيى ابن خلدون: **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: الفريد بيل، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1328هـ/1910م، ج 2، ص 48-49.

⁶ حول أنماط الإنتاج والعلاقة الإنتاجية بين المزارعين وملاك الأراضي في الغرب الإسلامي عموماً ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش: **العلاقات الإنتاجية بين المزارعين وأرباب الأراضي في المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري**، ضمن: **اضاءات حول تراث الغرب الإسلامي**، ط 1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، (د،ت)، ص 77-83؛ محمد حسن: المرجع السابق، ص 411-433.

و تربية الحيوانات و غيرها، و يشير ابن خلدون إلى أنّ الفلاحة متقدّمة على بقية الحرف لكونها بسيطة و طبيعياً فطرية لا تحتاج إلى نظر و لا علم،⁷

لذا اعتنى أهل الأرياف بالزراعة، لأنّها الأكثر التصاقاً بالطبيعة و من الأعمال التابعة للفلاحة نجد حرفة حراسة الزرع¹ ورعي الأغنام² بسبب طبيعة بلادهم الرعوية، لذا فالفلاحة يحترفها أهل البدو أكثر شيء و لا يحترفها أهل المدينة.

- الصناعة الصوفية (النسيجية)³:

تعتبر من أهمّ الصناعات المتداولة ببلاد المغرب الأوسط، لأنّه يغلب نمط الإنتاج الرعوي و بكثرة الماشية، وهذا يؤدي إلى وجود مادّة الصوف،⁴ حيث أسهمت المرأة بشكل فعّال في ازدهارها حتّى أنّ بعضهنّ كانت تشتترط في عقد نكاحها أن لا تمنع من ممارسة حرفتها الصناعية،⁵ فقد كانت تشتري الصوف و تقوم بغسله و مشطه و غزله و نسجه⁶ و يتمّ غزل الصوف في البيت من نساء البادية، حتّى أنّ هذه الحرفة لم تكن حكراً على فئة، باعتبار أنّ النساء أجمع يغزلن و يباع في سوق الغزل، كما كان يصنع منه الألبسة مثل البرنوس و الخنابل و الجلابة و الحايك و سراويل الصوف و الزرابي.⁷

⁷ الفلاحة تكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم: كاللبن من الأنعام و الحرير من دوده و العسل من نخله أو يكون من النبات في الزرع و الشجر بالقيام عليه و إعداده لاستخراج ثمره. المقدّمة: ص 376.

¹ أشار الونشريسي إلى الاستحار من أجل حراسة الزرع: المصدر السابق، ج 8، ص 255.

² نفسه، ج 8، ص 263.

³ كانت في أغلبها تعتمد على إنتاج القطن و الكتان، واستعمل المغاربة في هذه الصناعة المواد الملونة كالنبيلة و الطرطر، الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية - تاريخ افريقية في عهد بني زيوي من ق 10 إلى ق 12 م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992 م، ج 2، ص 249.

⁴ محمد حسن: المرجع السابق، ص 474؛ عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 92، 90.

⁵ الونشريسي: المصدر السابق، ج 3، ص 278؛ موسى عزّ الدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003 م، ص 208.

⁶ مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 199.

⁷ محمد حسن: المرجع السابق، ص 477؛ مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 199.

الصناعة الجلديّة:

لقد حققت الصناعة الجلديّة تقدّمًا لما توفّر لسكان البادية من ثروة حيوانيّة كبيرة، فصنعوا من جلود الأبقار أنواعا من الأفرشة، و يضاف إلى ذلك صناعة السروج الخيل والأحذية والدفوف وقرب الماء، والجلد المدبوغ كان له أهميّة خاصّة في كتاباتهم كما أشار المقديسي.

الصناعة الفخاريّة:

أمّا الصناعة الفخاريّة فقد أبدع سكان بلاد المغرب الأوسط في صنع الأدوات الفخاريّة سواء التي يحتاجونها في الاستعمال المتزلي أو المعدّة للبيع،¹ فصنعوا القلال، و صنعوا الجرّة و الزير والأباريق والكيّزان والكؤوس

والأقداح والأطباق و صنعوا الكوانين لمواجهة برد الشتاء،² و هي صناعة لا غنى عنها في الأرياف و البوادي،³ و ممّا سبق يمكن أن نستنتج أنّ معظم الحرف كانت مرتبطة بما تخرجه الأرض الزراعيّة، و بما كانت تخرجه البادية من ثروة حيوانية كلها ساهم في وجود هذه الحرف التقليدية في بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

إن جميع حوادث المجتمع هي ثمرة تضاد البدو والحضر و هي ناتجة عن الهوة الاقتصادية والاجتماعيّة التي تفصل بينهما،⁴ فقد ظلّ التناقض حادًا بين هذه المجموعات البدويّة والسكّان الحضر، وقد أظهرهم هذا التناقض في شكل أعداء للمؤمنين مخالفين لتصرّفات المسلم الحقيقي، وصورّت بداوتهم على أنّها كفر،⁵ ولكنّ بصفة عامّة و نظرا للعداء القائم بين المجتمعين الحضري (المراقب من طرف فقهاء المالكيّة) و البدوي (الذي لا يخضع لأية سلطة) ، فقد كفر فقهاء المالكيّة البدو و حاربوهم باسم الدين.⁶

¹ مفتاح خلفات: المرجع السابق، ص 201.

² عبد الكريم جودت: المرجع السابق، ص 118.

³ يحيى أبو المعاطي محمد عباسي: المرجع السابق، ص 719.

⁴ عبد الكريم جودت: المرجع السابق، 457.

⁵ إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص 163.

⁶ نفسه: ص 164.

إنّ من إفراط التصنيف أن تعتبر الكتل القبليّة مجتمعات قائمة بذاتها لا تربطها بالحواضر رابطة في المجتمع القبلي يكره السلطة المفروضة عليه، ولكنّه يتعايش مع مراكز الاستقطاب الحضاري إمّا عبر الأسواق أو باشتغال عدد من السكّن الحواضر بعيد عن مدّهم، وبما يشغل به أهل الأرياف من زراعة وتربية المواشي، فالحدود غير مقفلة كلياً والفكر الاجتماعي موجود بقدر يتّسع أو يتقلّص حسب الأفراد أكثر ممّا هو حسب الانتماء العام، وكانت المدن تضمّ أنصاف حضريّين و من القرويّين و زعماء القبائل و أفرادها من عمّروا المدن.

مهما توتّرت العلاقات بين البدو و الحضّر أو بين البدو و الفلّاحين المستقرّين فإنّ كلّ طرف منهم في حاجة لمنتجات الآخر، و كان أهل البادية يستهلكون بعض مصنوعات المدينة الأسلحة و الأحفاف و الرواحي، و في المقابل كان السكّان الحضّر في حاجة للماشية و للصوف، وحتّى الجيوب التي كانت لا تصل إلى المدينة إلا بفضل القبائل البدويّة التي جنّدت نفسها لحفارة (حماية) القوافل بالمقابل¹.

لقد كان الكثير من أهل البدو يشاركون في التجارة، كما كانت البادية خزّان لكثير من المواد التجارية التي كانت تباع في المدينة، ومن بين هذه المواد: الصوف الجلود الحطب و مواد مرتبطة بالغذاء تباع في المدينة، وقد مثّلت الأسواق الريفيّة المجمع الأوّل لهذه المواد باعتبارها نقاط التقاء بين البدو و الحضّر،² فأسواق البادية هي أسواق أسبوعيّة تقام في أطراف المدن و كثيرا ما كان أهل المدينة يذهبون إلى البادية من أجل الحصول على السلع بثمن أقلّ ممّا هو في المدينة، وهذا دليل على وجود اتّصال بين البادية والمدينة³.

عموما كان السوق المجال الأساسي الذي يلتقي فيه البدو والحضر، لا لتبادل المنفعة والبيع والشراء فقط، وإنما لتبادل الأفكار والأخبار ولنقلها من عالم الحضّر إلى عالم البدو أو العكس،⁴ والنسبة الكبيرة من المبادلات بين العالمين المتولّد عن الحاجة المتبادلة وعن التناقض والعداء بينهما،⁵ وممّا سبق يمكن القول بأنّ

¹ إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص 177.

² محمّد حسن: المرجع السابق، ص 474.

³ البرزلي: جامع مسائل الأحكام، تحقيق: محمّد الحبيب الهيلة، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م، ج 3، ص 229، محمّد حسن: المرجع السابق، ص 490.

⁴ نفسه، ص 522.

⁵ إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص 178.

السوق كان له دورا كبيرا في خلق نوعيّة مميّزة من العلاقات بين هذين العالمين البدوي والحضري الذين لا طالما اعتبر متناقضين.

إن الماء والذي يعتبر القاسم المشترك الحيوي والرئيسي الذي كان يحدّد طبيعة العلاقة بين المدن وباديها، ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار عند محاولة تحليل بعض الوقائع التي تتحدّث عن تأزم العلاقة بين البادية والمدينة، وإن الخلافات والمشاكل المرتبطة باستغلال الماء تعكس دوره الكبير في تطوّر ونموّ وازدهار المدينة، إذ تقوم المياه مثل الدّم داخل الجسم، وذلك لأهمّيته في الحياة: السكّان والغراسات ومختلف الأنشطة الاقتصادية¹ وأهمّيّة المياه بالنسبة للمدينة تطرح مسألة علاقة المدينة بالبادية المحيطة بها، والتي يسكنها قبائل شديدة المراس، تتحكّم في مصادر الماء الذي يتزوّد منه سكّانها وكانت هذه العلاقة رهينة موازين القوى التي لم تكن دائما في صالح المدينة، وخاصة خلال فترة ضعف الحكم المركزي، ففي فترة تأزم العلاقة بين المدينة والبادية، فتعمّد قبائل البادية إلى قطع الماء وتغيير مجاريه وهذا يؤدّي إلى تأدّي المدينة² فالمدن التي تقع على الأوديّة يسهل التحكّم فيها من طرف القرويين، وأيضا كانت بعض هذه المدن تتزوّد بقنوات مائيّة تقطع مسافة معيّنة قبل أن تصل إلى المدينة، وسواء تعلّق الأمر بالوادي أو بالقناة، فإنّ العديد من المدن كانت تقع تحت رحمة " إرادة القبائل المجاورة لها، وهي إرادة تخضع بالأساس لدرجة قوّة أو ضعف السلطة المركزيّة، وأيضا قد تكون خضعت للتحوّلات الطبيعيّة ممثّلة بالخصوص في تناقص المياه خاصة فصل الصيف أو القحط.³

ونستنتج ممّا سبق ذكره أنّ الماء كان له أهمّيّة بالغة في تحديد طبيعة العلاقة بين المدينة والبادية في العصر الوسيط في بلاد المغرب الأوسط.

¹ محمّد الهادي بن سعيد: المدينة و الماء في العهد الوسيط: مثال مدينة تازا المغربيّة، ضمن: أشغال الملتقى الدولي الثاني حول "القبيلة-المدينة-والجمال". في العالم العربي الإسلامي الوسيط، تونس، 10-12 أبريل 2003م، ص 196.

² نفسه، ص 197.

³ عمر بنميرة: النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط(القرنان الثامن والتاسع الهجري/14 و15م)، ط1، مطبعة الأمنية، الرباط، 2012م، ص334.

الخاتمة

وفي الختام يمكن القول أن بلاد المغرب الأوسط تحمل في ثناياها ميزاتاً عوامل فرضتها الخصوصية الجغرافية من جبال وصحاري وغيرها، أدت إلى انتشار القبائل البدوية بها وسيطرتها عليه بشكل دائم ولهذا بقي المغرب الأوسط في معظم مناطقه عبارة عن بوادي دون تعميره

- يتضح مما سبق أن تركيب وتنظيم المدن الإسلامية في العصور الوسطى يكون بتمركز المدينة حول المسجد الجامع وقصر الحاكم وبيت مال المسلمين، أما ما يخص شروط نشأة المدن في العصر الوسيط والتي لا بد أن تتوفر في تأسيسها هي التي تجمع خمسة أشياء : نهر جاري، ومحراث طيب، وحطب قريب، وسور حصين وسلطان قاهر.

يمكن أن نعتبر أن أهمية الموقع محلياً ودولياً هو الذي يتحكم في ظهور المدينة وعظمتها وديمومتها، واختيار الموقع يختلف من مدينة إلى أخرى .

- لا بد من نجاح هذه العوامل والشروط في نشأة المدينة في الفترة الوسيطة من توفر عامل الأمن والهدوء في المنطقة، فلا بد من مراعاة هذه النواحي عند بحث موضوع تأسيس المدن في تلك الفترة، إضافة إلى معطيات أخرى تختلف من مدينة إلى أخرى .

- أن الكثير من المدن الساحلية ببلاد المغرب الأوسط كان منشؤها الأول لا يعدو أن يكون مجرد مرسى صغير للتجارة ثم تطورت هذه المرسى وأصبحت تتمتع بمقومات وشروط المدن الكبيرة التي أصبحت من أهم الحواضر الوسيطة

كانت مدينة بجاية عبارة عن مرفأ صغير على ساحل البحر ولكنه بقدم الحماديين إليها في عهد الناصر ابن علناس الذي أمر بإعادة بنائها مما جعل بجاية تنمو وتتطور شيئاً فشيئاً وخاصة بعد هجرة عدد كبير إليها أدى إلى كثرة التوطن الديموغرافي الذي كان دعماً قوياً لها وهذا ساهم في بروزها كقطب مهم بالنسبة لمدينة المغرب الأوسط في تلك الفترة الوسيطة .

- أن مدن الداخل في بلاد المغرب الأوسط معظمها كان منشئها لا يعدو أن يكون مجرد منطقة عبور تجارية ثم تطورت هذه المناطق شيئاً فشيئاً لتصبح مدن من المدن ذات الأهمية ببلاد المغرب الأوسط .

- تعتبر مدينة تيهرت من بين المدن التي استحدثت بعد الفتح الإسلامي من قبل عبد الرحمان ابن رستم لأن تيهرت كانت عبارة عن منطقة عبور وخط مرور للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ثم بدأت في التطور والنمو فأصبحت حاضرة بمواصفات المدن في العصر الوسيط وعاصمة لدولة الرستميين

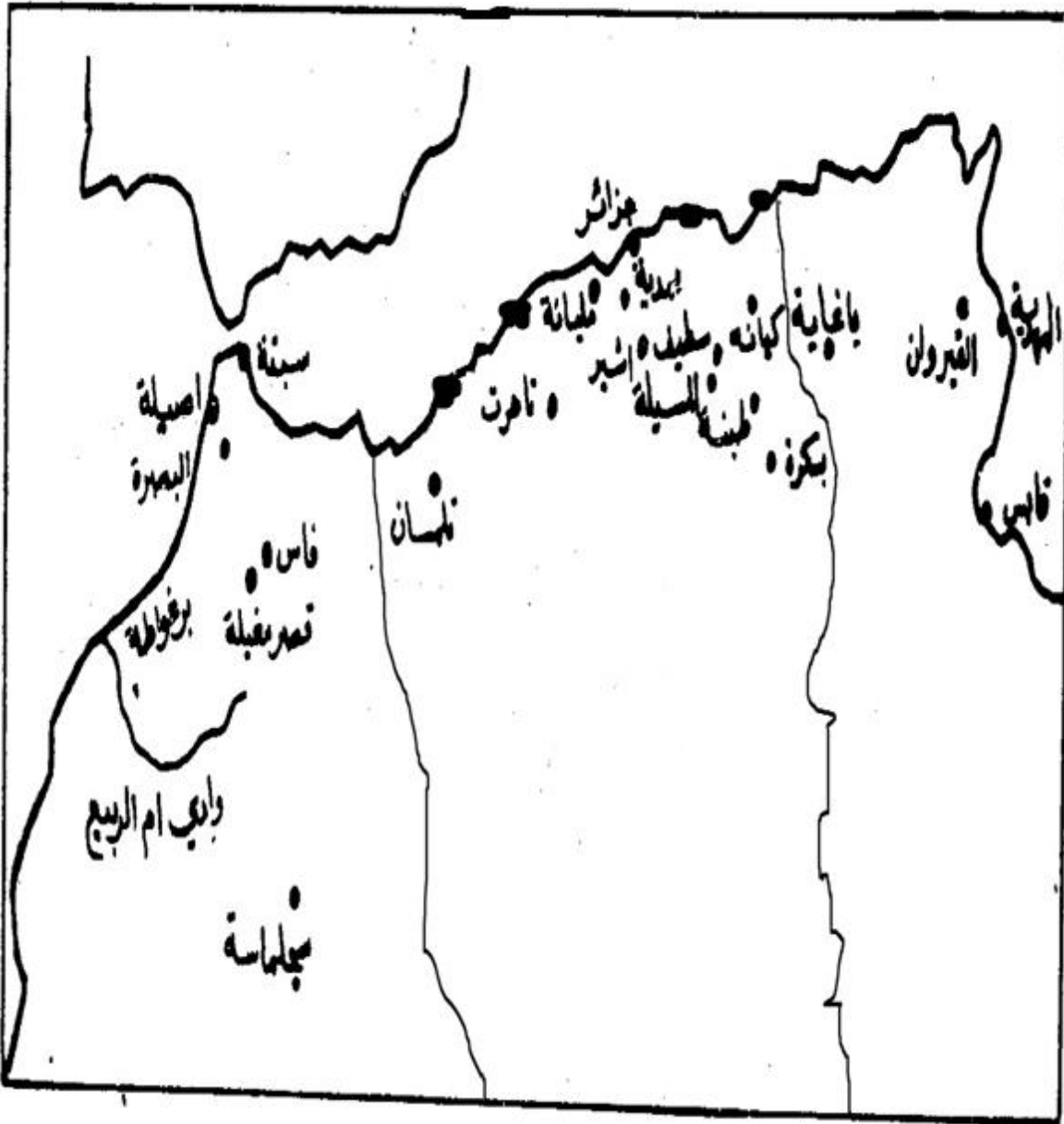
أن القبيلة كتنظيم سياسي تميزت ببساطة السلطة السياسية داخلها وانصياع أفرادها للترتيب السياسي وفقا للأعراف، فكل فرد في القبيلة له موقع اجتماعي خاص به لا يستطيع تجاوزه بسبب الموروث القبلي.

- يمكن القول أن بلاد المغرب الأوسط وباديته تميزت بوفرة المنتوج الزراعي وذلك لتوفر عدة عوامل ساعدت على هذه الوفرة منها خصوبة التربة وتنوعها وقوعها في منطقة دافئة .

- إن معظم الحرف في بوادي وأرياف المغرب الأوسط جعلها ارتبطت بما تخرجه الأرض الزراعية وبما تزخر به من ثروة حيوانية أيضا.

- يمكن القول أن المدينة أصبحت مركز استقطاب لطلبة العلم من البادية وهذا كان له دور مهم في ربط التواصل الفكري والثقافي بينهما كما كانت الرحلة العلمية أداة فعلية في توطيد أوصل هذه العلاقة في الفترة الوسيطة.

يمثل هذا الملحق خريطة لأهم مدن الساحل والداخل في المغرب الأوسط الوسيط¹



¹ رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/1977م، ص 17.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

أولاً: قائمة المصادر

- 1- الإدريسي، أبو عبد الله محمد الشريف (548هـ/1154م): نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، ليدن، 1863م
- 2- الإصطخري: المسالك الممالك، تحقيق: محمد جابر وعبد العال الحسيني، دار القلم ، القاهرة، 1961م
- 3- البرزلي، أبو القاسم بن احمد البلوي (ت841هـ/1438م): جامع مسائل الأحكام، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م.
- 4- البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت487هـ/1094م): المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، (دت).
- 5- التنبكي، أحمد بابا (ت1036هـ/1626م): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج، تحقيق: أبو يحيى عبد الله الكندري، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2002م.
- 6- ابي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1399هـ/1979م،
- 7- حسن الوزان، حسن محمد الفاسي (ت957هـ/1552م): وصف إفريقيا: ط2، ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1983م.
- 8- الحموي، ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله (ت 626 هـ / 1228 م) : معجم البلدان: دار صادر، بيروت، 1977م، مج3.
- 9- ابن حوقل (ت367هـ/977م) : صورة الأرض، ط02، دار صادر، بيروت، 1938م.
- 10- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (ت 676 هـ / 1376م) : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط أعمال الأعلام ، تحقيق: احمد مختار العبادي و محمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب، 1964م.
- 11- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد (808هـ/1406م): تاريخ بن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة و سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ / 2000م
- 12- _____: المقدمة، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا: بيروت، 2002م.

- 13- ابن خلدون، أبي زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن الحسن (ت781هـ/1379م—): **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: الفريد بيل، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1328هـ/1910م—
- 14- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت681هـ/1281م—): **وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، (د،ت).
- 15- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت670هـ/1271م—): **طبقات المشايخ بالمغرب**، تحقيق: إبراهيم طلابي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.
- 16- ابن ابي زرع ، علي بن عبد الله الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصورة، الرباط، 1973م—.
- 17- ابو زكرياء، يحيى بن أبي بكر(471هـ/1048م—): **سير الأئمة وأخبارهم**، تحقيق: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979م.
- 18- الزمخشري: **أساس البلاغة** ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، (د،ت).
- 19- الشماخي احمد بن سعيد بن عبد الواحد: **كتاب السير**، تحقيق: أحمد بن مسعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1992م.
- 20- ابن الصغير(عاش أواخر القرن الثالث الهجري: **أخبار الأئمة الرستمين**، تحقيق: محمد ناصر و إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- 21- ابن ظافر الاسدي: **أخبار الدولة المنقطعة**، تحقيق: عصام هزايمة واخرون، ط1، مؤسسة حماد، دار الكندي، الأردن، 1999م—.
- 22- الغبريني، أبو العباس أحمد بن محمد (ت704هـ/1304م): **عنوان الدراية فيمن عرف من علماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: رايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970م.
- 23- ابن القاضي أحمد: **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.
- 24- القزويني: **آثار البلاد واختبار العباد**، دار صادر: بيروت د.ت.
- 25- المازوني: **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**. تحقيق: مختار حساني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 2009م

- الماوردي :تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، تحقيق: محي الدين هلال سرحان وحسن الساعاتي، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981م
- 26- _____، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري(ت450هـ/1085م) :
الأحكام السلطانية الدينية، تحقيق: احمد مبارك البغدادي، ط1، مطابع الوفاء، المنصورة، مصر، 1409هـ/1989م
- 27- المراكشي، ابن عذارى أبو العباس أحمد بن محمد (721هـ/1321م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج س كولان وليفى بروفنسال، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1980م.
- 28- ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب (ت781هـ/1379م): المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية - مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، المغرب، 1429هـ.
- 29- _____: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولاي أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 30- المقدسي، ابو عبد الله محمد بن احمد(ت378هـ/997م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: تحقيق: محمد أمين الضاوي، ط1، دار الكتب العلمية : بيروت 2003م
- 31- المقرئ، شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني(ت 1041هـ/ 1631م): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب، شرح: مريم قاسم الطويل ويوسف علي الطويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.
- 32- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت 711هـ): لسان العرب دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 33- مؤلف مجهول(عاش خلال القرن 6هـ): الإستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة وبلاد المغرب، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، الأعضية، بغداد، (د.ت).
- 34- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1331م) :نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسن نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م
- 35- الونشريسي، ابو العباس احمد بن يحيى(ت914هـ/1511م): المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية و الأندلس و المغرب، تحقيق محمد حجي، دار العرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1981م

- 36- اليعقوبي، احمد بن ابى يعقوب بن واضح(ت284هـ/897م): كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1988م.
- ثانيا المراجع:
1. كتب باللغة العربية :
- 1- إسماعيل: فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني، ط1، سيناء للنشر، القاهرة، 1995م.
- 2- الباروني سليمان باشا: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ط1، دار الحكمة، لندن، 2005م.
- 3- بحاز ابراهيم: الدولة الرستمية (160-196هـ/ 777- 909م) - دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية-، ط1، ب م، 1985م.
- 4- بنميرة عمر: النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن و التاسع هـ/ 14 و 15م) ، ط 1، مطبعة الأمنية، الرباط، 2012م.
- 5- بوتشيش إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ط1، دار الطباعة والنشر ، بيروت ،لبنان 1998م.
- 6- بوتشيش إبراهيم القادري:العلاقات الإنتاجية بين المزارعين وأرباب الأراضي في المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري، ضمن: اضاءات حول تراث الغرب الإسلامي ،ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، (د،ت).
- 7- بوروية رشيد وآخرون، الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 8- بوروية رشيد: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/1977م.
- 9- بوطالب محمد نجيب : سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي، ط1، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان ، 2002م.
- 10- الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، تعليق: ممدوح حقي، ط2، دار اليقظة العربية لنشر، 1384هـ/1964م.
- 11- جعيط هشام: المدينة العربية الإسلامية، الكوفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005م.
- 12- الجنحاني الحبيب: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

- 13- جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م) ، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، (د.ت).
- 14- الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ط8، دار الأمة، الجزائر، 2010م.
- 15- حركات إبراهيم: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، دار إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 1998 م.
- 16- الحريري محمد عيسى: الدولة الرستمية بالمغرب - حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، ط3، الكويت، 1987م.
- 17- حساني مختار: الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011م.
- 18- حسن محمد ، البادية والمدينة لأفريقية في العهد الحفصي ، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، تونس.
- 19- حمدان جمال: جغرافية المدن، ط2، علا الكتب، القاهرة، (د.ت).
- 20- خلفات مفتاح: قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م)، دراسة في دورها السياسي والحضاري، دار الأمل، تلمسان، 2011م.
- 21- سالم السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية، د.ت.
- 22- السبتي عبد الأحد وفرحات حليلة: المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، ط1، المركز الثقافي العربي : بيروت، 1994م.
- 23- شاكر مصطفى: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط2، مكتبة الأسد، دمشق 1997م
- 24- عبد الباقي محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، (د.ت).
- 25- عثمان محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت ، 1988م.
- 26- عزّ الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م.
- 27- فتحة محمد: النوازل الفقهيّة والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن (6 إلى 9هـ/12 إلى 15هـ)، منشورات كليّة الآداب و العلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 1999م.
- 28- مجمع اللغة العربية المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، مصر، 1994م.

- 29- مجمع اللغة العربية المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ، القاهرة مصر
1994م
- 30- مختار حساني: الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر،
2011م
- 31- مرمول محمد الصالح: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
- 32- مكّي محمد شوقي إبراهيم: المدخل إلى تخطيط المدن، دار المريح للنشر والتوزيع: الرياض،
1986م
- 33- ناجي عبد الجبار: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ، شركة المطبوعات للنشر
والتوزيع، بيروت، 2001م
كتب معربة :
1. إدريس الهادي روجي: الدولة الصنهاجية -تاريخ افريقية في عهد بني زييري من ق10الى
ق12م-، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي ،بيروت، لبنان، 1992م.
2. روبر بارنشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ترجمة: حمّادي الساحلي، ط 1، دار الغرب
الإسلامي، 1988م
3. لومبار موريس: الإسلام في مجده الأول من القرن 2هـ - 5هـ / 8-11م، ترجمة: إسماعيل
العربي، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1990م.
- مجلات والدوريات:
- 1- أبو المعاطي محمد العباسي يحي: الملكيات الزراعية وأثارها في المغرب والأندلس (238-
488 هـ / 1095-1852م) دراسة تاريخية مقارنة ، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه مرقونة ،
إشراف : طاهر راغب حسين ، 1421 هـ - 2000 م.
- 2- بن سعيد محمّد الهادي: المدينة و الماء في العهد الوسيط: مثال مدينة تازا المغربيّة، ضمن:
أشغال الملتقى الدولي الثاني حول "القبيلة-المدينة-والحال". في العالم العربي الإسلامي الوسيط، تونس،
10-12 أبريل 2003م.
- 3- بوشريط أمّحد: الزراعة بالمغرب الأوسط الإمكانيات والخصائص، "مجلة الناصريّة للدراسات
الاجتماعيّة و التّاريخيّة"، العدد 4، الجزائر، جوان 2013م

- 4- جدلة إبراهيم : المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي، ضمن أعمال الملتقى الدولي: القبيلة - المدينة - المجال في العالم الغربي الإسلامي الوسيط ، تونس 10-12 أبريل ، 2003 مـ.
الرسائل الجامعية :
- 1-عباس احسان:" المجتمع التاهرتي في عهد الرستمين" مجلة الاصاله، ع/45، ماي 1975م.
2_عبد الملك مياده و صبري محمد: مجلة كلية التربية واسط، تخطيط وعمارة المدينة الإسلامية مدينة دمشق القديمة نموذج حضري لقمة التعايش والتعامل في المنظور الاسلامي، معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا ، ع11.
3_ مزدور سمية:مقاربات حول مستوى معيشة التجار والحرفيين في المغرب الأوسط،مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية ، ع4، الجزائر، جوان 2013مـ
4_ ناصح محمد: جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب في العصر الوسيط (القرن 6 هـ/12م) نموذجاً : القسم الأول أطروحة الجامعية، قسم التاريخ، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط السنة الجامعية ، 1987-1988م

فهرس الأعلام

- أـ
- أبي القاسم بن إسماعيل بن عبيد الله: 31
- آل حماد: 27
- الإصطخري: 22
- إبن الصغبر: 35
- إبن منظور: 9، 12
- إبن خلدون: 10، 12
- بـ
- البكري: 21، 22، 23، 24
- حـ
- حسن الوزان: 21، 23
- عـ
- عبد الرحمان بن رستم: 33، 34
- عبد الجبار ناجي: 14
- مـ
- محمد بن البعبع: 27
- المقدسي: 14، 25
- نـ
- الناصر بن علناس: 26، 27، 28
- لـ
- لسان الدين الخطيب: 27
- صـ
- صالح أبي عبد الله الخراط: 42
- يـ
- اليعقوبي: 21، 25، 29، 30
- ياقوت الحموي: 25، 26

فهرس الأماكن

س	_أ_
_ سكيكدة: 21	_ أشير: 31، 33
_ سطيف: 29، 30، 31	_ إفريقية: 25، 26، 32
_ سجلماسة: 32	_ إسبانيا: 35
ق	_ب_
_ قسنطينة: 22، 29	_ بلاد الأندلس: 20، 37
_ قالمة: 29،	_ البصرة: 35
_ القل: 29	_ بجاية: 24، 25، 40، 42
_ القيروان: 26، 27،	_ بونة: 20
م	_ت_
_ مجانة: 29	_ تلمسان: 23، 32
_ المسيلة: 30، 31	_ تيهرت: 29، 33، 34
_ مقرة: 30، 31	_ج_
_ ميلة: 29	_ جيجل: 22، 25
و	_ جزائر بني مزغناي: 22، 23، 25
_ وهران: 23، 24	_ح_
	_ حمزة: 32

فهرس المحتويات

استهلال

الإهداء

الشكر والعرفان

أ.....	مقدمة.....
8.....	الفصل الأول: المفهوم الاصطلاحي للبادية والمدينة.....
9.....	أولاً: التعريف اللغوي والاصطلاحي للبادية.....
11.....	ثانياً: التعريف اللغوي والاصطلاحي للمدينة.....
15.....	ثالثاً: شروط نشأة المدينة في العصر الوسيط.....
19.....	الفصل الثاني: المدينة في المغرب الأوسط بين الحضور التاريخي والتطور السياسي.....
20.....	أولاً: مدن الساحل الرئيسية.....
28.....	ثانياً: مدن الداخل الرئيسية.....
38.....	الفصل الثالث: علاقة البادية والمدينة (تفاعل).....
39.....	أولاً: البادية مصدر لديموغرافيا المدن.....
41.....	ثانياً: المدينة منطقة استقطاب لطلبة العلم من محيط البادية.....
44.....	ثالثاً: العلاقات الاقتصادية.....
51.....	خاتمة.....
53.....	ملاحق.....
54.....	قائمة المصادر والمراجع.....
61.....	فهرس الاعلام.....

62..... فهرس الاماكن

63..... فهرس الموضوعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ